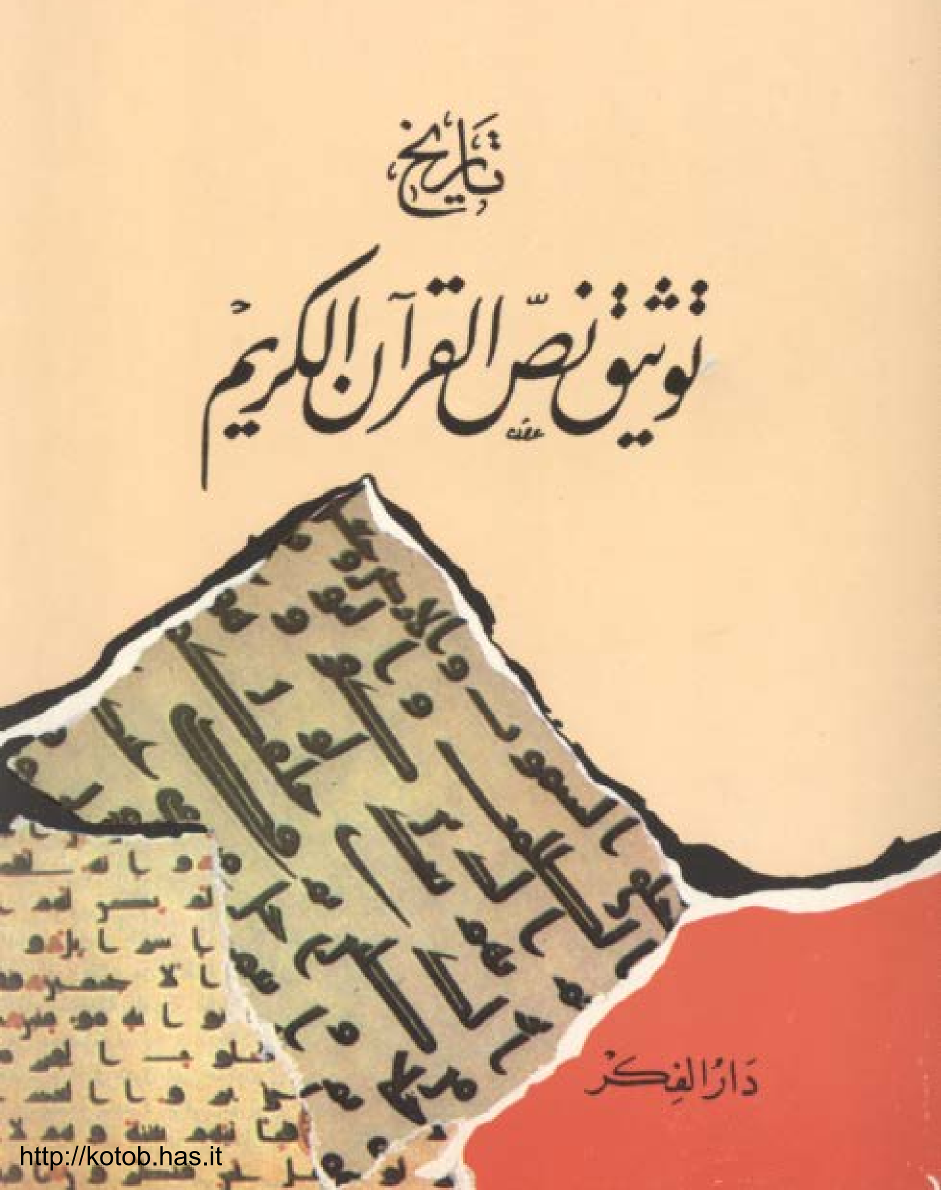
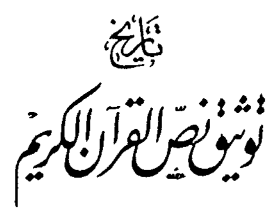
خالد عبد الرحمن العك

تاريخ توثيق نص القرآن الكريم

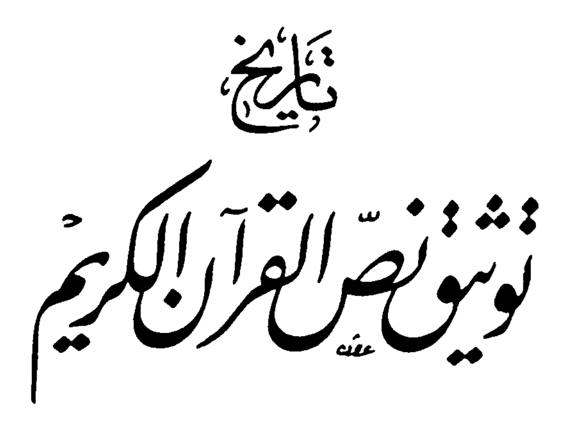


دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم



خالد عبد الرحمن العك

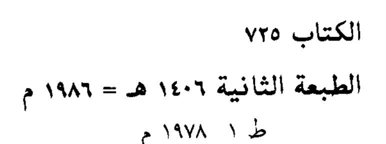


تفضل بمراجعته

فضيلة شيخ قراء الشام

الشيخ حسين خطاب

دار الفكر



الكتاب ٧٢٥

الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م

ط ١ ١٩٧٨ م

سورية - **دمشق** - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤

هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي تفضل علينا بنعمة القرآن ، وجعلنا من أمّة النبيّ عليه الصلاة والسلام .

وبعد :

هذه الطبعة الثانية لكتابي (تاريخ توثيق نصّ القرآن الكريم وقراءاته) التي تصدر عن (دار الفكر) العامرة ، أقدمها لكل مؤمن بهذا القرآن أنّه تنزيل ربّ العالمين ، ليزدادَ إيماناً مع إيمانه ، كما أنّي أقدمها لأولئك الذين يُخامر الشكُّ عقولَهم ، لِتُزيلَ عنهم رُكامَ الجهل بأقدس نصّ سماوي عرفته البشرية ، وليُدركوا حقيقة هذا القرآن الكريم الذي تكفّل الله تعالى بحفظه ورعايته وتخليده ، الذي قالَ الله تبارك وتعالى فيه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ؛ فيكونوا من الذين تشرّفوا بالإيمان به ، وسعدوا بالاهتداء بهديه .

وإنّ كتابي هذا الذي صدر في طبعته الأولى عام / ١٩٧٩ م / بإشراف شيخ القراء بدمشق العلامة الشيخ حسين خطاب حفظه الله تعالى ورعاه ، قد نَفِدَ من المكتبات ، فرأت (دار الفكر) إعادةَ طباعته طبعةً جيدةً وأنيقة ،

فأجبتُها إلى ما رَغِبتْ إليه بعدَ أن أعدتُ النظرَ في أبحاثه وزدتُ فيه بحثاً خامساً فيما يتعلق بمراحل ضبط القراءات وأوجهها .

وإنّي إذْ أقدم هذا الكتاب الذي يتضمّن تاريخ مراحل توثيق نصّ القرآن الكريم وقراءاته ، وكتابته وتنقيطه وتشكيله ؛ فإنّي أسأل اللهَ تعالى أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم ، ولكتابه العظيم ، وأن يتقبله بقبولٍ حَسَنٍ يومَ الدِّين ، وأن ينفع به عباده الصالحين .

والحمد لله رب العالمين .

دمشق في يوم الاثنين ٨ ذو القعدة ١٤٠٦ هـ

الموافق لـ ١٤/٧/١٩٨٦ م

خادم كتاب الله تعالى
خالد عبد الرحمن العك
غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع
المسلمين
آمين

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين ؛ المبعوث رحمةً للعالمين ، سيّدنا محمدٍ رسول الله الأمين ، صلى الله عليه وآله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين .

وبعد :

إنّ من حق الله تبارك وتعالى على عباده أن يتعبدوه بتلاوة كلامه الكريم ، ويتقربوا إليه بالعناية بكتابه العظيم ، ابتغاءَ رضوانِه والتنعّم بِجِنانِهِ .

هذا .. ولمّا كان التسابق في ميدان رعاية كتاب الله تعالى والعناية به من المكرُمات الإسلامية ، فلقد استعنتُ به سبحانه وتعالى في تقديم دراسة موضوعية لتاريخ توثيق النصّ القرآني الكريم ، فأعانني الله سبحانه وتعالى على ذلك ، تفضلاً منه وتكرّماً .. فكان لي هذا الشرف العظيم في الدنيا والآخرة : في تقديم أبحاثٍ في تاريخ توثيق نصّ القرآن العظيم ، الذي كان ولا زال (الصرحَ الشامخ في تاريخ الإسلام) .

ثم إنّ هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم هو أمانةُ الله تعالى التي استودعها في أعناق المسلمين لرعايته ، وحمايتِهْ ، بتعلّمِ تلاوتهِ ، ودراسةِ علومه ، وفهمِ آياته ، وتطبيقِ أحكامه ، والتزامِ مناهجه ، والسيرِ على سبيله ، والاهتداء بنوره ، والتّحاكمِ إليه ، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما

رواه ابن حبان في صحيحه : « إنَّ هذا القرآنَ طرفُه بيدِ الله ، وطرفُه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنّكم لن تضِلُّوا ولن تهلكوا بعْدَه أبداً » ، ويقول عليه الصلاة والسلام فيا رواه الحاكم بإسناد صحيح : « منْ قرأ القرآنَ فقد استدرجَ النبوّةَ بينَ جنبيهِ ، غيرَ أنّه لا يوحى إليه » .

وإنّني إذْ أقدم هذه المباحث التاريخية إنّما أستعرض من خلالها أصحَّ النصوص وأقوى الروايات ، معتمداً في ذلك على أمهات كتب السنّة النبويّة والسيرة العطرة والتاريخ الإسلامي ، وعلى الأخص مصنفات أئمة هذا الشأن كما هو مُبين في ثبت المصادر والمراجع في آخر الكتاب .

ولستُ أدعي فيا أقدمه العصمة والكمال ، غير أنني لم آلُ جهداً في تقصي الصحيحَ والصوابَ . فأسألُ اللهَ تبارك وتعالى كمالَ الإخلاص في نيتي ، وحُسن السداد في عملي ، فإنّه خيرُ مسؤولٍ وأكرمُ مُجيبٍ .

دمشق : ١٧ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ

الموافق لـ ١٩٧٨/٤/٦

خالد عبد الرّحمن العك
غفر الله له ولوالديه آمين

كلمة فضيلة العلامة

شيخ قراء الشام : الشيخ حسين خطاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله منزل الكتاب والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وجميع الأصحاب .

وبعد : فقد عرض علي الأخ السيد خالد عبد الرحمن العك هذه الرسالة الموجزة التي أسماها (تاريخ توثيق النص القرآني الكريم) راجياً مني أن أطلع على ما تحتويه من النصوص والأفكار التي تقيم الحجة وتوضح بالبرهان وثاقة النص القرآني وسلامته من التحريف والتبديل من لدن أن تكرم الله عز وجل بتنزيله على القلب الطاهر والمستقر الأمين في الأرض قلب خاتم النبيين وسيد المرسلين إلى أن امتدت إشعاعاته في المشرقين والمغربين وسعد بقراءته أهل الثقلين .

فسلك في تاريخ توثيق هذا النص القرآني مسلكاً واضحاً مرتباً على مراحل يأتي بعضها في إثر بعض حسب تدرج وصول القرآن الكريم إلينا مدعماً بالنصوص المستنبطة من السنة النبوية والسيرة المحمدية والتاريخ الإسلامي وما

سطرته أيدي العلماء في هذا الفن قديماً وحديثاً . وكان فيما قدمه يترسم آثار الأقدمين ويغترف من معينهم ويستنير بهداهم ليضع فيما بنوا ولو لبنةً ، ويضيف إلى مشعلهم ولو قبساً ، فالتقط من منثور دررهم هذه المجموعة المختصرة التي سلكها في عقده اللألاء ، وأضاف إلى مجموع ما خلفه لنا الأسلاف من إتقان وبرهان وإبانة ومناهل عذبة ما يستعين به طلاب الفضيلة من الخلف على الصعود درجة في السلم الذي يضعه أهل العلم من السلف لفهم كتاب الله وحفظه والدفاع عنه والله خير حافظاً إذ هو القائل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وإذ أشكر للأستاذ خالد العك هذا المجهود الذي بذله في رسالته هذه أرجو من الله العلي القدير له دوام التوفيق ، وإلى مجهود أكبر إن شاء الله تعالى في توجيه المسلمين ونصرة الإسلام والله ولي التوفيق .

١٥ جمادى الآخرة/١٣٩٩ هـ

١٢ أيار/١٩٧٩ م

خادم القرآن الكريم
شيخ القراء
بدمشق

المقدمات التمهيدية

١ ـ الوحي والوحي الإلهي :

الوحي لغة : الإشارة والكتابة ، والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفي ، وكل ماألقيته إلى غيرك خُفية فهو من الوحي بمعنى الإعلام في الخفاء ، ومن الوحي اللغوي : الإلهام الغريزي كما في قوله سبحانه : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُون ﴾ [النحل : ٦٨] . ومنه : إلهام الخواطر بما يلقيه الله سبحانه في رُوع الإنسان السليم الفطرة ، كالوحي إلى أمِّ موسى ، قال سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] . وهذا النوع ضدّ الوسوسة التي مصدرها الشيطان قال سبحانه : ﴿ .. وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

فأصل الوحي في اللغة : الإعلام في الخفاء ، ولذلك صار الإلهام يُسمى وحياً . وكذلك الإشارة والإيماء يُسمى وحياً ، والكتابة تسمى

وحياً . وقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى : ٥١] ، معناه : إلاّ أن يُوحي إليه وحياً فيُعْلِّمه بما يَعْلم البشرُ أنه أَعْلَمه ، إمّا إلهاماً أو رؤيا ، وإمّا أن ينزّل عليه كتاباً كما أنزل على موسى ، أو قرآناً يُتلى عليه كما أنزله على سيّدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم اصطلح عليه على أنّه تعليم الله تبارك وتعالى لأنبيائه ورسله أمورَ الدِّين بواسطة الملائكة الذين يرسلهم إليهم ، أو بغير واسطة بأن يُكلّمهم ربُهم تكليماً .

وهو بمعناه الاصطلاحي : ظاهرةٌ يشترك فيها الأنبياء جميعاً ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ، وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٤][١] .

٢ ـ أنواع الوحي الإلهي :

وليستْ للوحي الإلهي كيفيةٌ واحدة ، وإنّما له أنواع شتى :

---

(١) انظر لسان العرب مادة (وحي) .

فمنها : ما يكون مُكالمةً بين الله ونبيه أو رسوله ، كما كلّم الله موسى تكليماً ، وكما كلّم سبحانه وتعالى سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام ليلةَ المعراج .

ومنها : ما يكون إلهاماً يقذفه الله تعالى في قلب رسوله على وجهٍ من العلم الضروري ، بحيث لا يستطيع له دفعاً ، ولا يجد فيه شكّاً .

ومنها : ما يكون مناماً صادقاً يجيئُ في تحققه ووقوعه كما يجيئ فلقُ الصبح في ظهوره وسطوعه .

ومنها ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وهذا النوع هو أشهر الأنواع في وحي الله سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام .

ووحي القرآن الكريم كلُّهُ من قبيل النوع الأخير ، وهو المصطلح عليه بالوحي الجليّ .

ثم إنّ مَلَكَ الوحي جبريلُ عليه السلام له حالات يهبط بها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فتارة يظهر للرسول عليه الصلاة والسلام في صورته المَلَكِيّة ، وتارة يظهر له في صورة إنسان يراهُ الحاضرون ويسمعون منه ، وتارة يهبط عليه خُفية فلا يُرى ، ولكن يظهر أثرُ التغيّر والانفعال على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فيغط ويغيب ولكنْ ليسَ كغطيطِ النائم أو غيبةِ الْمُغْمَى عليه ، وإنما هو الاستغراقُ في تلقّي الوحي الإلهي ، والانخلاع عن الحالة البشرية العادية لملاقاة الملائكة ، فيؤثّرُ ذلك على جسمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك لثقل ما يُلقى إليه من القرآن الكريم ، وكان يسمع الحاضرون صوتاً عندَ وجههِ عليه الصلاة والسلام كأنّه دويّ النحل ، ولكنّهم لا يفهمون منه قولاً ، ولا يفقهون عليه حديثاً ، أمّا هو عليه الصلاة والسلام فإنّه يسمع ويعي ما يُوحى إليه ، ويعلم علماً ضرورياً أن هذا وحي الله تبارك وتعالى من غير لَبسٍ ولا خفاء ، أو شكٍ أو ارتياب ، فإذا ذهب عنه وَجَدَ ماأُوحي إليه من ربِّه حاضراً في ذاكرتهِ ، ومُنتقشاً في حافظتهِ ، كأنما كُتب ذلك في قلبه الشريف كتابةً .

٣ ـ بدء الوحي الإلهي :

روى البخاري في صحيحه : « أنّ أول مابُدئ بهِ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءتْ مثلَ فلقِ الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلُو بغارِ حراء يتعبد الله تعالى فيه الليالي الْطِوال ـ ذوات العدد ـ ثم يرجع إلى أهله ، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحقُّ وهو في هذا الغار ، فقال له : اقرأ ، قال : ماأنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ

مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلتُ : ماأنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلتُ : ماأنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني ، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾ [القلم : ١ ـ ٥] . فرجع بها رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يرجف فؤادُهُ ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، فقال : زملوني زملوني ـ أي : غطوني ـ فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيتُ على نفسي ، فقالت خديجة : كلاّ والله مايُخزيك الله أبداً ، إنّك لتصلُ الرحم ، وتحملُ الْكَلَّ ، وتَكسِبُ المعدومَ ، وتَقري الضيفَ ، وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ ، فانطلقتْ به خديجةُ حتى أتتْ به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العزى : ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : ياابن عم اسمعْ من ابن أخيك ، فقال له ورقة : ياابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبرَ مارأى ، فقال له ورقةُ : هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى ، ياليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أَوَمُخرجيَّ هم ؟ قال : نعم ، لم

يـأتِ رجلٌ قـط بمثل مـا جئت بـه إلا عُودي ، وإن يـدركني يـومـك أنصرك نصراً مـؤزراً . ثم لم ينشب ـ أي : يلبث ـ أن تُـوفي ، وفَتَرَ الوحيُ . أي : توقف .

٤ ـ علاقة رسول الله بالوحي :

إنّ علاقـةَ رسـول الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم بـالـوحي الإلهي كانتْ مرتبطـةً ارتبـاطـاً وثيقـاً مع الْعَـالم السماوي ، ومـا كانت تلـك الأحوال التي تصاحبه في فترة تلك العلاقة ، وتظهر عليه في حينها إلاّ من الأدلة الجليّة على أنّ هذا الوحي الذي كان يهبط عليه ، هو وحي سماوي من عنـد الله سبحـانـه وتعـالى ، لم يكن لـه بـه أيٌّ اختيـار أو تكلّف له .

وإنّ مـا كان يبـدو عليـه صلى الله عليـه وآلـه وسلم حين يلتقي بالوحي لا يخفى على أحد ممن كان حاضراً عنده أو نـاظراً إليـه ، فقـد كان الصحابـة يرونـه وقـد أخـذتـهُ الْبُرَحـاءُ ـ أي : الشـدةُ ـ حتى إنّ جبينـه ليتفصّـد عرقـاً ، وإنّهم ليسمعـون عنـدَ وجهـهِ الشريف دوّيـاً كـدويّ النحـل ، ثم لا يلبث أن تُسَرَّى عنـه تلـك الشـدةُ من مـلاقـاة الوحي ، فإذا هو يتلو قرآناً كريماً وذكراً حكيماً .

ونحن إذا نظرنا في هذه العلاقة من خلال الاستقراء المركّز لأيقنّا اليقينَ الجازم بأنّ هذه الانفعالات التي كانت تظهر عليه صلى الله عليه

وآلـه وسلم لم تكن نـاشئـةً عن سببٍ عـادي أو طبيعي ، وإنّما هي عـوارض التـأثير الخـارجي الشـديـد للـوحي الإلهي الْمُنزَّلِ على قلبـه الشريف عليه الصلاة والسلام ، ليس غير .

فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينسب ما جاء به من الذكر الحكيم لنفسه ، وإنّما أعلنَ من توّه : أنّه وحيٌ خـارجٌ عن طوع إرادته ومحض اختياره ، لأنّه الوحي الإلهي حقّاً لا غير .

٥ ـ أهمية إدراك حقيقة الوحي :

إنّ حديث بدء الوحي هذا ـ وهو مـا تقـدم ـ هو الأسـاس الـذي يترتب عليـه جميع حقـائـق الإسـلام بعقـائـده وتشريعـاتـه ، وفهمـه واليقين به ، وهو المدخل الذي لا بدّ منه إلى اليقين بسـائر مـا جـاء بـه رسـول الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم ، من إخبـارات غيبيـة وأوامر تشريعية ؛ ذلـك لأنّ حقيقـة الوحي الإلهي هي الْفَيصل الوحيـد بين الإنسان الذي يُفكر من عند نفسـه ، ويشرّع بواسطـة رأيـه وعقلـه ، والإنسان الذي يُبلِّغ عن ربِّه دون أن يُغيّر أَو يُنقص أَو يزيد .

من أجل هذا يهتم أعداء الإسلام بمعالجة موضوع الوحي من حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويبـذلون جهـداً فكريـاً متكلّفـاً من أجل التلبيس في حقيقة الوحي الإلهي للإيهام والخلـط بينـه وبين الإلهام وحديث النفس . وذلك لعلمهم بـأنّ موضوع الوحي الإلهي هو

منبعُ يقين المسلمين وإيمانِهم بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله تبارك وتعالى .

فلئن أُتيحَ تشكيكُ المسلمين بحقيقة الوحي أمكنَ تكفيرهم بكل ماقد يتفرع عنه من عقائد وأحكام ، وأمكنهم أن يمهدوا لفكرة : أنَّ كلَّ ماجاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام من المبادئ والأحكام ليس إلاّ من تفكيره الذاتي ، ولا علاقة لذلك بالسماء .

فمن أجل تحقيق هذه الغاية المنكرة أخذ أعداء الإسلام من الملاحدة على شتى أشكالهم ومظاهرهم يحاولون تأويل ظاهرة الوحي الإلهي ، وإبعادها عن حقيقتها بكل ما يروق لخيالهم من فنون التصورات والتخيّلات الباطلة .

٦ ـ حقيقة الوحي الإلهي :

إنّ استمرار الوحي الإلهي على مدى أقلِّ من رُبع قرن من الزمن دَلالةٌ صادقة على حقيقته الإلهية ، وأَنّ ظاهرته ظاهرةٌ ربانيّةٌ سماويّة ، لا كما زعم أَعداء الإسلام في تأويلها بأنّها ظاهرة نفسانية محضة .

وبيان دَلالات حقيقة الوحي الإلهي هي كما يلي :

أولاً : الفارق البيّن بينَ القرآن الكريم والحديث النبويّ : فقد

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمر أصحابه بكتابة القرآن الكريم في وقتٍ نهى فيه عن كتابة غيره معه ، واكتفى لأحاديثه باستيداعها ذاكرةَ أصحابه ، لا لأنّ أحاديثه الشريفة كلام من عنده لا علاقة للنبوّة به ، بل للفارق الذي بينهما ، فالقرآن الكريم موحىً به من عند الله سبحانه إليه باللفظ والمعنى ، بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وأمّا الأحاديث فمعناها وحيٌ من عند الله سبحانه ، ولكن ألفاظَها وترتيبها من عنده عليه الصلاة والسلام ، فكانت غاية ذلك النهي عدم اختلاط القرآن بالحديث .

ثانياً : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُمّيّاً ، وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسانية حقائق علمية وتاريخية ثابتة ، كذكر أركان العقيدة وأحكام الشريعة ، وذكر الأنبياء والرسل وقصصهم على ما فيها من حكم عظيمة ، ومواعظ قيمة ، وعبر بالغة ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

ثالثاً : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُسأل عن بعض الأمور فلا يجيب عليها ، وربما مرَّ على سكوته زمنٌ طويل ، حتى إذا نزلَ في ذلك شيءٌ من القرآن طلبَ السائلَ وتلا عليه ما نزلَ في ذلك الأمر الذي سأل عنه .

رابعاً : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتصرف في بعض الأمور على وجه معين ، فكانت تنزل الآياتُ من كلام الله تبارك وتعالى تصرفه عن ذلك الوجه ، وربما انطوت تلك الآيات على عتابٍ أو ملامةٍ له عليه الصلاة والسلام .

خامساً : تريّث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أمر حادثة الإفك التي كانت تمس بكرامة إحدى زوجاته الطاهرات حتى نزل قوله تعالى في سورة [النور : ١١ ـ ٢٠] في براءتها وطهارتها . والحمد لله .

سادساً : إنّ صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طيلةَ حياته في قومه وملازمتهم له ، واشتهاره فيما بينهم بالصادق الأمين ، يتطلب أنْ يكون عليه الصلاة والسلام قد قضى في تأملِه ودراستِه حين فوجئ بهذا الأمر الخطير على أيّ شكٍ يتخايل لعينه أو فكره . ولذلك كان عليه الصلاة والسلام في فترة انقطاع الوحي عنه في حزن شديد ... فيتبدى له جبريل فيقول : « يا محمد إنّكَ رسولُ الله حقاً » ، فيسكن بذلك جأشُهُ وتقرُّ عينُه .

٧ ـ كيف كان يتلقى رسول الله القرآن ؟

كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يتلقّى وحيَ القرآن عن جبريل عليه السلام على حالة واحدة ، وهي : أن ينسلخ النبي عليه

الصلاة والسلام من حالته البشريّة العاديّة إلى حالة أُخرى يحصل له بها استعدادٌ لتلقي الوحي من جبريل ، وهو على حالته الملَكيّة ، وفي هذه الحالة قد يسمع الحاضرون عند مجيء جبريل صوتاً شديداً كصلصلة الجرس ، وعندما يُلقي إليه القرآن يسمعون صوتاً كدوي النحل ، وهذه الحالة هي أشدّ حالات الوحي الذي كان ينزل عليه ، وذلك كما صرحت به الأحاديث الصحاح من ثِقَلٍ في جسمه الشريف حتى لتكاد الناقة التي كان يركبها حين يأتيه الوحي لتبرك ، وإذا جاءت فخذه على فخذ إنسان قريب منه لتكاد ترضُّها ، وكان يتفصّد جبينُهُ عرَقاً حتى في اليوم الشديد البرد .

ووحي القرآن كله كان على هذه الحالة ، وهي : الحالة التي يكون فيها جبريلُ على مَلَكِيّتِهِ ، وتحوّل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حالة البشرية إلى حالةٍ من حالاتِ الملائكية التي تليق بتلق وحي القرآن الكريم عنْ أمين الوحي جبريل عليه السلام ، ولم ترد هناك قرائن تفيد نزول شيء من القرآن عن طريق جبريل وهو على حالة تصوّره بصورة البشر ، وكل ما جاء من ذلك في الصحيح إنّما كان في وحي السنّة الشريفة لا في وحي القرآن الكريم .

وذلك ... لحكمة بالغة : فلو أُنزل شيءٌ من القرآن في حالة تصوّر جبريل على هيئة البشر لكان هذا مثاراً للشك والرّيب ، والتلبيس

والتـدليس ، ولكان فيـه مستنـــد للمشركين في زعمهم : ﴿ إنّما يُعَلِّمُــهُ بَشَرٌ .. ﴾ [النحل : ١٠٣] .

٨ ـ كيف كان تنزّل القرآن ؟

لقد كان لتنزّل القرآن الكريم حالة واحدة ، وهي : نزولـه مُنجماً مُفرّقـاً على مـدى أقـل من رُبـع قرنٍ من الـزمن ، وذلـك لِحِكَمٍ جمّــة وأسرار عدّة ، نُجملها فيما يلي :

أولاً :

تثبيتُ فؤاد رسول الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم وتقويـةُ قلبـه ، وإلهـابُ مشـاعره ، وتسليتُـه ومُؤانستُـه ولا يتحقـق ذلـك إلاّ بتـوالي النزول وتكرار الترداد .

ثانياً :

التدرّج في تربيةِ الأمةِ دينياً وفكرياً واجتماعياً وعلماً وعملاً . ولا يتحقـق ذلــك إلاّ إذا كان نـزول القرآن مفرّقــاً وعلى فترات . يقـول سبحـانـه : ﴿ وَقُرْآنـاً فَرَّقْنـاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّـاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

ثالثاً :

تيسيرُ حفظِهِ وفهمـهِ على الأمـة ، فقـد أوجب الله سبحـانـه على المسلمين حفـظَ ألفـاظـه وفهمَ معـانيـه وتـدبّرَ أحكامـه وحكمِـهِ ، قـال

سبحانه : ﴿ كِتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لَيَدَّبَرُوا آياتِهِ وَلْيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبابِ ﴾ [ص : ٢٩] . ولا يتيسر ذلك إلا بنزوله منجماً ، لأنّ الأمة كانت أميّةً لا عهد لها بذلك من قبل .

رابعاً :

مُحاكاةُ الحوادثِ ومُجاراةُ الطوارئ المتجددةِ في حياة النبوّة الطاهرة ، وذلك يقضي ببيان حكم الله تعالى في الوقائع والأحوال التي تحدث للأمة ، وهذا ممّا يزيد في إيمان الأمة ويرسّخُ يقينَها بالإسلام ، وأنّه حقاً وصدقاً من عند الله سبحانه وتعالى .

خامساً :

إجابةُ السائلين على أسئلتهم التي كانوا يسألونها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وسواء أكانت هذه الأسئلة لغرض التثبّت والتأكّد من الأحكام الشرعية ، أم لتقوية العقيدة ، أم كانت للاسترشاد والمعرفة والاهتداء .

سادساً :

لتعجيز من كان يُكذِّبُ الوحيَ ، وذلك بإعطائه فرصةً سانحة لمعارضته أو الإتيان بمثله ، كي تقوم عليهم الحجة تلو الحجة ، ولو أنّ نزوله كان جملةً واحدةً لَما أمكنَ تكرارُ التحدي مرّةً بعد مرّة ـ في ثبوت إعجازه دائماً وأبداً ـ وذلك بثبوت عجزهم في معارضته المرّة تلو المرّة .

سابعاً :

إظهارُ أنّ القرآن الكريم على نزوله مُفرّقاً ، وتباعد ما بين أزمان النزول ، كونه سلسلة ذهبية ، مترابطة الحلقات ، متآخية الفقرات ، منسجمة العبارات ، متناسقة المعاني والإشارات ، لاتنبو كلمة عن كلمة ، ولا تنفر آية من آية ، بل كلُّه في غاية الفصاحة والبلاغة ، وروعة الإحكام والانسجام ، ولا يسمو بأسلوبه حيناً وينزل حيناً آخر . ولا تتناقضُ غاياتُهُ أو تتغايرُ مقاصدُه . مما يدلُّ أعظمَ الدَّلالة على أنّه ليسَ من عندِ البشرِ .

وإذا نظرنا في مؤلفات المؤلفين ودواوين الشعراء وأمالي الكاتبين ، مهما بلغوا من الفصاحة والبلاغة والعلم والإحاطة فإنّا ـ بلا شك ـ نجدها تتفاوت تفاوتاً بيناً واختلافاً ظاهراً بين ماألّفه في أول حياته ، وبين ما كتبه بالأمس وبين ما يكتبه في الغد ، سواء أكان في اللفظ والمعنى أم في المقصد والمبنى ، أم في أغراضِهِ ومراميهِ ، أم في أسلوبه وتفكيره .

وإذا كان القرآنُ الكريم لم يأتِ على غرارِ ما يصنعُ البشرُ ، فقد تعيّنَ وتأكّدَ وتحقّقَ من أنّه تنزيلٌ من لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ .

هذا . وليست هذه نهاية الحِكَم والأسرار في نزول القرآن منجّماً مُفرقاً ، فهناك الكثيرُ الكثير لمن أحكمَ النظرَ وأجالَ البصرَ وأمعنَ الفِكرَ في هذا القرآن العظيم وأسلوب تنزيله .

٩ ـ أسباب نزول القرآن الكريم :

إنّ معنى سبب النزول هو الحادث الذي نزلت الآيات القرآنية مُتحدِّثة عنه أو مبيّنة لحكمه أو موضحة لأمره .

وقد كان لنزول الآيات الكريمة كيفيات ثلاث :

الأولى : أن تُنزلَ الآياتُ جواباً عن سؤال .

والثانية : أن تُنزلَ بياناً لأحكام الحوادث .

والثالثة : أن تُنزلَ ابتداءً من غير سبب من حادث أو سؤال . فمن الأول والثاني : الآيات التشريعية وما إليها ممّا يدل على أصول التشريع . والآيات التي تتعلق ببيان العقيدة الإسلامية وإبطال عقائد الزيغ والضلال . ومن الثالث : آيات ضرب الأمثال والعِبر وذكر قصص الأنبياء والمرسلين . وليس ذلك مطرداً ، فهناك كثيرٌ من الآيات في ذلك ليس لها سبب نزلت من أجله ، وذلك كما هو مبيّنٌ في كتب التفسير .

ولمعرفة أسباب النزول حكمة بالغة :

وذلك لدليلين اثنين :

الأولُ : لمعرفة مقتضى الحال الذي هو مدار علم المعاني والبيان ، وبها يُعرفُ إعجازُ نظمِ القرآن . فالكلام الواحد يختلف فهمُهُ بحسبِ

الأحوال أو الزمان أو الإنسان . فالاستفهام مثلاً لفظه واحد ، وإنّما يحتمل معاني كثيرة من تقريرٍ أو توبيخٍ أو إنكار . والأمر مثلاً يحتمل الإباحة أو الندب أو الوجوب ، وأيضاً يحتمل التهديد أو التعجيز وغير ذلك .

والثاني : إنّ معرفةَ أسباب النزول رافعةٌ لكلِّ إشكال قد يُشْكل على دارس القرآن ، كما أنّ الجهل بسبب النزول مُوقع في الاشتباه والارتباك والإشكال . قال علماء التفسير : (لا يمكن معرفة التفسير دون الوقوف على أسباب النزول وأحواله) .

وطريق معرفة أسباب النزول هو النقلُ الصحيحُ عن الصحابة ، والتابعين الذين اشتهروا بالأخذ عن الصحابة علومَ القرآن كمجاهد وعكرمة وسعيد بن المسيب والحسن البصري وعطاء وقتادة والضّحاك .

المرحلة الأولى

استيداع النصّ الكريم في الصدور والسطور

جمع القرآن الكريم وكتابته في عهد نزوله

ليس في الوجود كتابٌ سماويٌّ وصلَ إلى ذُروة التوثيق العليا كالقرآن الكريم ، الذي كُتب على أصح أسلوب التدوين ، وعلى أدق قواعد الضبط ، في مصحف لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي ظلّ ينتقل إلينا بطريق يعجزُ البشرُ عن مثله لغيره . فقد كان نقله بوسيلتَين مقترنتَين دائماً وأبداً : الحفظُ في الصدور ، والرسمُ في السطورِ مُتداولاً ليلاً نهاراً على طول وعرض الأمة الإسلامية في كل زمان ومكان .

وبهذا الشكل الرائع الذي لا نظيرَ له في وجود البشر اكتسب نقلُ القرآن الكريم صفةَ التواتر الذي يفيد القطع واليقين الجازم في أنّ هذا القرآنَ قد وصلَ إلينا من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ ، ونحنُ نقرؤهُ الآنَ بنفسِ الضبطِ والإتقانِ الذي كان يتّسِمُ بهما في حضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في حين تلقيه وأدائه على حدّ سواء .

وما ذلك إلاّ من رعايةِ الله تبارك وتعـالى لكلامـه العظيم الـذي استودعه في مصاحف الأمة ، قال سبحانـه : ﴿ إِنّـا نَحْنُ نَزَّلْنَـا الـذِّكْرَ وإِنّا لَـهُ لَحَـافِظُون ﴾ [الحجر : ٩] . فكان حفـظُ الله تعـالى للقرآنِ الكريم النعمـةَ الكبرى التي أنعمَ بهـا سبحـانـه على الأمـة الإسلاميـة ، فحفظَ لها به إسلامَها وعقيـدتَهـا وشريعتهـا وآدابَهـا وأخلاقَهـا ولغتَهـا وحضارتَها . ولولا حفـظُ القرآن الكريم لهـا لكانت الأمـة العربيـة بل الأمـة الإسلاميـة خبراً بعـد أثر . فهي محفوظـة من الزوال والانـدثـار بحفظ القرآن الكريم .

ولقـد مرّ توثيقُ النصّ القرآني المجيـد بخمس مراحـل من مراحـل الرعاية والعناية ، والضبط والإتقان في حفظه ورسمه وجمعه وتدوينـه وتحمّله وأدائه وضبط قراءاته .

وهـا نحنُ الآن آخـذون في دراسـة المرحلـة الأولى لتـوثيـق نصِّـه الكريم وذلك في حضرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

لقـد مرّ توثيقُ نصِّ القرآن في زَمنِ الرسول عليـه الصلاة والسلام في ثلاثة أدوار متتاليات :

الدور الأول :

اتخاذ الكتاب المتخصصين بالكتابة العربية لكتابة القرآن الكريم وذلك :

لِما كانَ من حرْصِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على كتابتِهِ وتدوينِهِ ، فقد اتّخذَ عليه الصلاة والسلام لذلك كتّاباً متخصصين بالكتابة العربية وقواعد إملائها حسبما كان في ذلك الوقت من الاصطلاحات التي تتعلق بالخط العربي الأصيل .

وقد كان وجود الكتابة في العرب قبيل الإسلام ، إرهاصاً لبعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ليجتمع للقرآن الكريم الرسمُ في السطور إلى الحفظِ بالصدور ، وبذلك يتهيّأ للقرآن من دواعي الحفظ والرعاية مالم يتهيّأ لغيره ، ويتحقق وعد الله تعالى بحفظه ورعايته .

كتّاب الوحي :

لقد كان لرسول الله كتّابٌ يكتبُون له ، فمنهم من كان يكتبُ بشكلٍ عام ، ومنهم من كان يكتب له الوحي بشكل خاص ، وقد كان هؤلاء على رتبة عالية من الأمانة والثقة بالإضافة إلى كونهم حاذقين في الهجاء والكتابة ، وقد اشتهر منهم في كتابة الوحي : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح ،

وهـؤلاء من كتبــة الـوحي المكي ، وقــد زاد عليهم مَنِ انضمّ إليهم من الأنصــارِ وهم : أُبيٌّ بن كعب وهـو أولُ مَن كتبَ بـالمـدينـة لـه عليــه الصلاة والسلام ، وزيدُ بن ثابت وهو أكثرهم كتابة للوحي المدني ، ثم انضمّ إليهم : الزبيرُ بن العوام وخالدُ وأبانُ ابنَـا سعيـد بن العـاص بن أميّة ، وعبدُ الله بن رواحة ، وعمرو بن العاص ، وخالدُ بن الوليـد ، والأرقمُ بن أبي الأرقم[1] .

كيفيّةُ الكتابة بين يديه عليه الصلاة والسلام :

قال زيـدُ بن ثـابت رضي الله عنـه : « كنتُ أكتبُ الوحيَ عنـدَ رسـولِ الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم ، وهـو يُملي عليّ ، فـإذا فرغتُ قال : (اقرأْ) ، فأقرأُهُ ، فإذا كانَ فيهِ سَقْطٌ أقـامَـهُ ، ثم أَخْرُجُ بـهِ إلى النّاس »[2] .

وقـال ابنُ عبـاس وعثمانُ رضي الله عنهما : « كانَ رسـولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ممّا يأتي عليـه الزمـانُ وهو تُنزّل عليـه السُّورُ ذواتُ العَـدَدِ ، فكان إذا أُنـزل عليــه شيءٌ منــه دعَـا بعضَ مَن كانَ يكتبُ فيقولُ : ضَعُوا هذهِ الآيـاتِ في السورةِ التي يُـذكرُ فيهـا كـذا وكـذا ،

---

(١) انظر فتح الباري ١٨/٩ ، والأسماء واللغات للنووي ٢٩/١

(٢) رواه الطبراني بسندٍ رجاله موثقون .

وإذا نزلتْ عليه الآيةُ يقولُ : ضَعُوا هـذهِ الآيـةَ في السورة التي يُـذكرُ فيها كذا وكذا »[١] .

الدور الثاني :

استحفاظُ النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه للقرآن :

روى البخاريُ ومسلمٌ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنّه قال : سمعتُ النبيَّ صلى الله عليـه وآلـه وسلم يقـولُ : « خُـذُوا القرآنَ مِن أربعـةٍ : مِن عبـدِ الله بنِ مسعـود ، وسـالمٍ - بن معقـل ، مـولى أبي حذيفة - ومُعاذِ بن جبل ، وأُبيٍّ بنِ كعبٍ » .

وقد كان جميع الصحابـة يتبـادرون إلى النبي صلى الله عليـه وآلـه وسلم وإلى مَن سمّاهم من الحفظةِ يأخذونَ منهم القرآنَ ويحفظونَهُ ، كلٌّ على قدرِ طاقتِهِ .

وقـد استطـاعَ استجماعَ القرآنِ كلَّـه غيرُ هـؤلاء الأربعـة وهم : أبو بكر الصـديق ، وعمرُ بن الخطـاب ، وعثمانُ بن عفـان ، وعليٌّ بن أبي طـالب ، وعبـدُ الله بن عمر ، وعبـدُ الله بن عمرو بن العـاص ، وأبو زيد عمّ أنس بن مالك ، وأبو الـدرداء ، وأبو أيوب الأنصـاري ، وعبادةُ بن الصامت ، وطلحةُ ، وحـذيفـةُ ، وأبو هريرة ، وسعـدُ بن

---

(١) رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن .

عُبيد . ومن النساء الصحابيات : عائشةُ وحفصةُ وأُمُّ سلمة : أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وليستْ هذه التسميةُ للحصر ، فقد ثبت في الصحيح أَنّ يوم بئر مَعُونة قُتِلَ من الأنصار سبعون ، كانوا يُسمّون القُرّاء ، وكانت هذه الغزوة في السنة الرابعة للهجرة .

هذا بالإضافة إلى مَن حفظَ أجزاء القرآن من الألوف المؤلّفة الذين لا يُحصون .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستقرئ بعضَ أصحابه للقرآن ، ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اقرأ عليّ ، فقلتُ : يا رسولَ الله أقرأ عليك ، وعليك أُنزل ؟ قال : نعم ، إنّي أحبُّ أنْ أسمعَهُ من غيري » .

حتى بلغ من عنايتِهِ عليه الصلاةُ والسلام في تحفيظِ أصحابهِ كلامَ الله تبارك وتعالى أَنْ كانَ يرغبهم في حفظه فيقولُ لهم ، كما في صحيح ابن حبان : « تعلّمُوا القرآنَ ، واقرؤُوه ، فإنّ مثلَ القرآنِ لمنْ تعلّمه فقرأَهُ كمثلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكاً يفوحُ ريحُهُ في كلِّ مكان ، ومَن تعلّمه فَيَرْقُدُ وهو في جوفه ، مَثَلُهُ كمثلِ جِرَابٍ أُوكِئَ على مِسْكٍ » . ويقول كما في الصحيحين : « خيرُكُم مَنْ تعلّمَ القرآنَ وعلّمَهُ » . ويقول كما في

المستدرك بإسناد صحيح : « مَنْ قرأَ القرآنَ فقدِ استدرَجَ النّبُوّةَ بينَ جنبيهِ غيرَ أنّه لا يُوحَى إليهِ » . ويقولُ كما في مسند أحمد بإسنادٍ رجالُه ثقات : « اقرؤُوا القرآنَ ولا تغلوا فيهِ ، ولا تجْفوا عنهُ ولا تأكلوا بهِ ، ولا تستأثِروا بهِ » ، ويقولُ فيما رواه الترمذي بسندٍ صحيح : « الذي يقرأُ القرآنَ وهو مَاهِرٌ بهِ معَ السّفَرةِ الكِرامِ البَرَرَةِ ، والذي يقرؤهُ وهو عليه شاقٌّ لهُ أجرَان » . ويقولُ فيما رواه الحاكم بسندٍ صحيح : « إنّ لله أَهْلينَ مِنَ النّاس ، قالوا : مَنْ هُم يا رسولَ الله ؟ قالَ : أَهلُ القرآنِ ، هُم أَهلُ اللهِ وخاصّتُهُ » . ويقول فيما رواه ابن حِبّان في صحيحه : « يُقالُ لصاحِبِ القرآنِ : اقْرأْ وارْقَ ، ورَتِّلْ كما كنتَ ترتِّلُ في الدنيا ، فإنّ منزلَكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤُهَا » . وفي صحيح ابنِ حبّان أيضاً : « عليكَ بتلاوةِ القرآنِ ، فإنّهُ نورٌ لكَ في الأرضِ ، وذُخْرٌ لكَ في السماءِ » . ويقولُ فيما رواه الحاكم بسندٍ صحيح : « إنّ الذي ليسَ في جوفِهِ شيءٌ مِنَ القرآنِ كالبيتِ الخَرِبِ » .

وكان عليه الصلاة والسلام يُرشدُهم إلى ما يُقوِّي حفظَ القرآنِ ، فيقولُ فيما رواه البخاريُ ومسلمٌ : « إنّما مَثَلُ صاحِبِ القرآنِ كمَثَلِ الإبلِ المعَقَّلَةِ ، إنْ عاهَدَ عليها أَمْسَكَها ، وإنْ أَطْلَقَها ذَهَبتْ » . ويقول فيما رواه ابنُ نَصْرٍ في كتابهِ قيام اللّيل : « إذا قامَ صَاحِبُ القرآنِ فقرَأَهُ باللّيْلِ والنّهارِ ذكرَهُ ـ أيْ بقيَ حافظاً له ـ وإنْ لم يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ » .

الدور الثالث :

منعُ النبيّ عليه الصلاة والسلام كتابةَ غير القرآن من أحاديثه الشريفة :

فقد روى الخطيبُ البغدادي في تقييد العلم أنّ أبا سعيد الخدري قال : « جَهَدْنَا ـ أي : بذلنا جُهدنا ـ بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم أنْ يأذنَ لنَا في الكتابِ فأبَى » ، وفي رواية : « استأْذنّا النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في الكتابةِ فلم يأذنْ لنَا » .

وروى مسلمٌ عن أبي سعيد الخدري أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قالَ : « لا تَكْتُبُوا عنّي ، ومَنْ كتبَ عنّي غيرَ القرآنِ فَلْيَمْحُهُ » .

وفي تقييد العلم للخطيب البغدادي أنّ أبا هريرة قال : « خرجَ علينا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحنُ نكتبُ الأحاديثَ فقال : مَاهذا الذي تكتُبون ؟ ، قلنا : أحاديثُ نسمعُها منكَ ، قال : كتابٌ غيرَ كتابِ الله ؟! أَتَدْرُونَ ماضَلَّ الأُممَ قبلَكُم إلاّ بِما اكْتَتَبوا مِنَ الكُتبِ معَ كتابِ الله تعالى » .

فبهذا النهي مِنَ الرسولِ عليه الصلاة والسلام توقفَ الصحابةُ عن كتابةِ الحديثِ واتجهُوا بهِ إلى تمكينِهِ في الأذهان والفكر خشيةَ

نسيانِهِ . واقتصرُوا بـالكتـابـة على القرآنِ الكريم خشيـةَ اختلاطـه بما ليسَ منهُ ، وذلك حِيْطَةٌ في العنايـةِ والرعـايـةِ التي فرضَها رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك الحين .

إلاّ أنّه عليـه الصلاة والسلام قـد أجـازَ لبعضِ أصحـابـه على الخصوص بكتابة أحاديثه الشريفة ، وذلك كما رواه الـدّارِميُّ في سننـه [ص ١٢٥] عن عبـدِ الله بنِ عمرو بن العـاص رضي الله عنهما قـال : « كنتُ أكتبُ كلَّ شيءٍ أسمعُـهُ مِنْ رسولِ الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم أُرِيـدُ حفظَـهُ ، فنهتني قريشٌ ، وقـالوا : تكتبُ كلَّ شيءٍ سمعتَـهُ مِنْ رسولِ الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم ، ورسولُ الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم بشرٌ يتكلّمُ في الغضبِ والرِّضَـا ؟! فـأمسكتُ عن الكتـابِ ، فذكرتُ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأومأ بـأصبعِـهِ إلى فِيْه وقالَ : اكتبْ فوَالذي نفسِي بيَدِهِ ما خَرَجَ منهُ إلاّ حَقّاً » .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة : « أنّـه لّمـا فتحَ اللهُ على رسوله صلى الله عليـه وآلـه وسلم مكّـةَ قـامَ الرسولُ صلى الله عليـه وآله وسلم وخطبَ في النّـاسِ ، فقـامَ رجلٌ من أَهلِ اليَمَنْ يُقـالُ لـهُ : أبو شَاه ، فقـالَ : يـا رسولَ اللهِ ، اكتُبوا لي ـ أي : مـا قـد سمعتُـه مِن قولِهِ عليه الصلاة والسلام ـ فقالَ : اكتُبوا لَهُ » .

وفي الإصابـة وفتح البـاري [٢١٧/١] ، أنّ أَبـا هريرةَ رضي الله

عنه كان يقولُ : « مَا مِنْ أصحابِ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أَحدٌ أَكثَرَ حديثاً عنهُ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلاّ مَا كانَ مِنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرو ، فإنّه كانَ يكتبُ ولا أكتبُ » .

وفي طبقات ابن سعد [٤٩٤/٧] ، عن إسحاق بن يحيى عن مجاهد أنّه قالَ : « رأيتُ عندَ عبدِ اللهِ بنِ عمرو صحيفةً ، فسألتُهُ عنها ، فقالَ : هذهِ الصادقةُ ، فيها مَا سمعتُ مِنْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وليسَ بيني وبينَهُ فيها أَحدٌ !! » .

ففي هذه الأحاديثِ والآثارِ في هذا الموضوع ، أَنّ نهيَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن كتابةِ أَحاديثِهِ معَ القرآنِ ، إنّما كانَ خوفَ الالتباس والاختلاط ، وأَنّ النهيَ ـ واللهُ أعلمُ ـ كانَ لصرفِ هِمَمِ الصحابةِ للاشتغالِ بالقرآنِ الكريم وتدوينِهِ وتوثيقِ نصِّه وتوكيدِ لفظِهِ ، وتركِ الحديثِ للمُمارسة العَمَليّةِ ، لأَنّهم كانُوا يُطَبِّقُون هديَهُ فيهِ ، فيَرَوْنَ فيتّبِعون ، ويسمَعُون فيهتَدون .

وإلى جانبِ هذا سمحَ عليه الصلاة والسلام لِمَنْ كانَ يأمنُ منهُ اختلاطُ القرآنِ بغيرِهِ أن يُدوّنَ الحديث كعبدِ اللهِ بنِ عمرو بن العاص ، وذلكَ لِما كان يَراهُ عليه الصلاة والسلام من عبدِ الله ، فقد روَى النّسائيُّ بسندٍ صحيحٍ أنّ عبدَ الله بنَ عمرو قالَ : « جمعتُ القرآنَ ، وقرأتُ بهِ كلَّ ليلةٍ ، فبلغَ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم

ذلكَ ، فقالَ : اقرأهُ في شَهْرٍ ، قلتُ : أستطيعُ أكثرَ مِنْ ذلكَ .. » . كما أنّه عليـه الصلاة والسلام أبـاحَ لمن يَصْعُبُ عليـهِ حفـظُ حـديثِـهِ ، أن يستعينَ بالكتابـة ، حتى إذا حفـظَ المسلمون القرآنَ الكريم وميّزُوهُ عَنِ الحديثِ بطبيعتِهم وسليقتِهِمُ الإسلامية نُسِخَ النهيُّ بالإباحة عامّةً .

فقد روى مسلمٌ عن ابنِ عباسٍ أنّه قـالَ : « لمـا اشتـدَّ بـالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وَجَعُـهُ قـالَ : « ايْتُونِي بكتـابٍ أكتبُ لكم كتـابَـاً لا تَضِلُّوا بعدَهُ » ، قـالَ عمرُ : إنّ النّبيّ صلى الله عليـه وآلـه وسلم غَلَبـهُ الوجعُ - وهو يريد بذلك أن يستعفيَهُ - وعندَنَا كتـابُ الله حسبُنـا ، فـاختلفـوا وكَثُرَ اللَّغَـطُ ، قـالَ : قـومـوا عنّي ، ولا ينبغي عنـديَ التنـازُعُ » . فقولُـهُ عليـه الصلاة والسلام هـذا هو واضـحٌ في أنّـه كان يُريدُ أنْ يُملي عليهم شيئاً من سنّتِهِ الطاهرةِ . فيُفهمُ من دَلالـة ذلـك أنّه أباحَ ما كانَ محظوراً على الصحابة ومَنْ بعـدَهم من كتـابـةِ الحـديثِ الشريفِ بشكلٍ عام ، واللهُ أعلمُ .

وهكذا . قَضَتِ النّبوّةُ حياتَهـا الطيّبـة في الرعـايـة والعنـايـة في توثيق النصّ القرآني الكريم بالإضافة إلى ما كانتْ تحملُهُ من أعباء حملِ الدعوة الإسلامية وبناء الدولـة الإسلاميـة التي كانتْ ترفُلُ بنعيم ظلالِ الوحي الإلهي .

وتنتهي مرحلـةُ التـوثيـقِ بعرضِ القرآنِ الكريم على صـاحب

الوحي جبريل عليه السلام مرتين ، فقد روى البخاريُ عن أبي هريرة رضي الله عنه قـالَ : « كانَ يُعْرَضُ على النبيِّ صلى الله عليـه وآلـه وسلم القرآنُ كلَّ عامٍ مرّةً ، فعُرِضَ عليه مرتين في العام الذي قُبِضَ فيـهِ » . وروي أيضاً عن فاطمـة رضي الله عنهـا أنّهـا قـالتْ : « أَسَرَّ إليَّ النبيُّ صلى الله عليـه وآلـه وسلم « أنّ جبريلَ كان يُعـارِضُني بـالقرآنِ في كلِّ سنــةٍ ـ أي : مرّةً ـ وأنّــه عَــارَضني العــام مرتَين ، ولا أراهُ إلاّ حَضَرَ أجَلي » .

المرحلة الثانية

جَمعُ القُرآن وَكتابتُه في عَهْدِ الْخَليفَةِ الصِّدِّيق

لـمّا التحقَ رسولُ الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم بـالرفيق الأعلى ، ورَجَعتْ نفسُهُ الطـاهرةُ إلى ربِّهـا راضيـةً مرضيّـةً ، تـولّى أمرَ الأُمّـة أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، وكانَ ذلـك في السنـةِ الحـاديـةَ عشرةَ مِنَ الهجرةِ ، فظهرَ مُسيلمـةُ الكـذابُ الـذي ادّعَى النّبـوةَ زُوراً وبُهتـانـاً ، يطمعُ في حكمِ العربِ ، وكان يتخـذُ ادّعَـاءَ النبـوّةِ وسيلـةً لذلك ، فثارَ إثْرَ وفاةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآلـه وسلم على الخليفـة الصديق ، فجهزَ له أبو بكر جيشاً لمحاربتِهِ .

ولّمـا دَارَتْ رَحَى الحربِ ، وكانتِ المعركـةُ حَـامِيَـةَ الـوَطِيسِ ، استشهدَ فيها كثيرٌ من الصحابةِ ، وكانَ من بينهم ما يقربُ مِنَ السبعين مَنْ حفَظَةِ القرآنِ الكريم ، فَهـالَ ذلـكَ جميعَ المسلمين ، وعزَّ الأمرُ على عمرَ بنِ الخطـاب ، فـدخـلَ على أبي بكرٍ وأخبرَهُ الخبرَ ، وأشـارَ عليـهِ بجمعِ القرآنِ ، قَبْلَ أن يَسْتَحِرَّ القتلُ بباقي القُرّاءِ في معـارك قـادمـةٍ ، وما زالَ بهِ يؤكّدُ عليهِ ذلك حتى أقرَّهُ .

روى البخاريُ أنّ زيدَ بنَ ثابتٍ قالَ : « أرسلَ إليّ أبو بكرٍ مقتلَ أهلِ اليمامة ـ أي : حينَ مقتلِهم ـ فإذا عمرُ بنُ الخطاب عندَهُ ، فقالَ أبو بكر : إنّ عمرَ بنَ الخطاب أتاني فقال : إنّ القتلَ استحرَّ ـ أي : اشتدَّ ـ يومَ اليمامةِ بقُرّاءِ القرآنِ ، وإنّي أخشى أن يستحرّ القتلُ بالقرّاء في الْمَواطِنِ ، فيذهبُ كثيرٌ منَ القرآنِ ، وإنّي أرى أنْ تجمعَ القرآنَ . فقلتُ لعمرَ : كيفَ تفعلُ شيئاً لم يفعلْهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقالَ عمرُ : هو واللهِ خيرٌ ، فلم يزلْ يراجِعْني حتى شرحَ اللهُ صدري لذلكَ ، ورأيتُ في ذلكَ الذي رآهُ عمرُ .

قالَ زيدٌ : قالَ أبو بكر : إنّكَ شابٌ عَاقِلٌ لا نتهمُكَ ، وقدْ كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ، فتتبّعِ القرآنَ فاجمعْه ، ـ قال ـ : فَوَاللهِ لو كلفوني نقلَ جبلٍ من الجبال ما كانَ أثقلَ عليَّ ممّا أمرني بهِ من جمعِ القرآنِ .

قلتُ : كيفَ تفعلان شيئاً لم يفعلْهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قالا : هو واللهِ خيرٌ . فلم يزلْ أبو بكر يراجعني حتى شرحَ الله صدري للذي شُرحَ له صدرُ أبي بكر وعمر . فتتبَّعْتُ القرآنَ أجمعُهُ من العُسُبِ واللِّخَافِ وصُدورِ الرجال ، حتى وجدتُ آخرَ سورةِ التوبةِ مع أبي خُزيمةَ ـ أي : ابنِ أوس بنِ زيدٍ ـ الأنصاري لم أجدْهَا معَ غيرِه ، ﴿ لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ .. ﴾ إلى آخر السورة [التوبة :

١٢٨] . فكانتِ الصحفُ عندَ أبي بكر حتى توفاهُ اللهُ ، ثم عندَ عمرَ في حياتِه ، ثم عند حفصةَ بنتِ عمر » .

وقولُه : « حتى وجدتُ آخرَ سورةِ التوبةِ معَ أبي خزيمة » ، ليسَ معناهُ إثباتُ الآية بخبرِ الواحدِ ، لأنّ زيداً كانَ قدْ سمعَها وحفظَها وعَلِمَ موضعَها في سورةِ التوبةِ مِنْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ، فكانَ ذلكَ زيادةً في التّوثيقِ والتّحري والتأكيد .

وفي رواية ، « ففقدتُ آيةً كنتُ أسمعُها مِنْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ، لم أجدْهَا عندَ أحدٍ ، فوجدتُها عندَ رجلٍ مِنَ الأنصار ، وهو خزيمةُ بنُ فاكِهَ بنُ ثابتِ بنِ ثعلبةَ ، الذي كان يُعرفُ بذِي الشهادتَين لكثرةِ تصديقِهِ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والآيةُ هي قولُهُ تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .. ﴾ [الأحزاب : ٢٣] . فقولُهُ ، « ففقدتُ آيةً كنتُ أسمعُها مِنْ رسولِ اللهِ .. » يُبيّنُ لَنا أنّه كانَ لا يكتبُ إلاّ مِنْ مَعِينِ مَا كُتِبَ بينَ يَدَيْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم لا مِنْ مجرّدِ الحفظِ دونَ الكتابةِ[١] .

وهكذا . مضى زيدٌ رضي اللهُ عنه يجمعُ القرآنَ الكريمَ فيما تفرّقَ

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن (٥٨/١) .

بينَ أيدي المسلمين مِنْ أجزائِهِ وسورِهِ من العُسُفِ واللِّحافِ والصحائفِ والألواحِ ، ومن أفواهِ الرجالِ ، في مصحفٍ واحدٍ ، بحضورِ ومشهدِ وعِلْمِ جميعِ الصحابةِ الذين عاصَرُوا نزولَ الوحي ورَافقُوا حوادِثَهُ ووقائِعَهُ ، فأتى جمعُ هذا المصحفِ على غايةٍ مِنَ البيانِ والرعايةِ والإتقانِ .

وقد امتازَ هذا الجمعُ الذي حقَّقَ المرحلةَ الثانيةَ لتوثيقِ النّصِّ القرآني الكريمِ بالميّزات التاليةِ :

أولاً : أنّ كلَّ مَنْ كانَ قد تلقَّى عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً مِنَ القرآنِ أتى وأدْلى بهِ إلى زيدٍ .

ثانياً : أنّ كلَّ مَنْ كتبَ شيئاً في حضرتِهِ عليه الصلاةُ والسلام مِنَ القرآنِ أتى بهِ إلى زيدٍ .

ثالثاً : أنّ زيداً كانَ لا يأخذُ إلاّ مِنْ أصلٍ قدْ كُتِبَ بينَ يديّ النبيّ عليهِ الصلاةُ والسلام .

رابعاً : أنّ الجمعَ بعدَ المقارنةِ بينَ المحفوظِ في الصُّدورِ والمرسومِ في السُّطورِ والمقابلةِ بينهما لا بمجرّدِ الاعتمادِ على أحدِهما .

خامساً : أنّ زيداً كانَ لا يقبلُ مِنْ أحدٍ شيئاً حتى يشهدَ مَعَهُ شَاهِدانِ على سماعِهِ وتلقيهِ عَنْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ،

فيكونُ بذلكَ قدْ تَمَّ هذا التدوينُ عن طريقِ الأداءِ الجماعِي ، والثلاثةُ أقلُّ الجمعِ .

سادساً : أنّ ترتيبَهُ وضبطَهُ على حَسبِ العَرضَةِ الأخيرةِ على رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم قبلَ الْتِحَاقِهِ بالرفيقِ الأعلى .

هذا .. وقدْ كانَ يشارك زيداً في هذهِ الْمُهمّةِ العظيمَةِ عمرُ بنُ الخطابِ ، فعَنْ عرُوةَ بنِ الزبيرِ أنّ أبا بكرٍ قالَ لعمرَ وزيدٍ : « اقْعُدَا على بَابِ المسجدِ ، فَمَنْ جاءَكم بشاهِدَينِ على شيءٍ مِنْ كتابِ اللهِ فاكْتُباهُ » . قالَ الحافظُ السخاويُ في (جمَالِ القُرّاءِ) : « الْمُرادُ أنّهُمَا يشهدانِ على أنّ ذلكَ المكتوبَ كُتِبَ بينَ يدي رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ، أو المرادُ أنّهما يشهدانِ على أنّ ذلكَ مِنَ الوُجُوهِ التي نَزَلَ بها القرآنُ »[1] .

روى ابنُ أبي داودَ في كتابهِ (المصاحف) أنّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ قالَ : « أَعظمُ النّاسِ أجراً في المصاحفِ أبو بكرٍ ، رحمةُ الله على أبي بكرٍ هُوَ أولُ مَنْ جَمَعَ القرآنَ بينَ اللّوحَين » .

---

(١) الإتقان ٥٨/١

مصاحفُ الصحابة :

وقـدْ كانَ بعضُ الصحـابـةِ يكتُبُ القرآنَ في مصحفِـهِ من تلقـاءِ نفسهِ ، فمن تلك المصاحف : مصحفُ عبـدِ الله بنِ مسعود ، ومصحفُ أُبيٍّ بنِ كعب ، ومصحفُ عبدِ الله بنِ عمر ، ومصحفُ زيدِ بنِ ثابت . وكلُّهم قرؤوا القرآنَ الكريم وحفِظُوه على رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إلاّ أنّ زيدَ بنَ ثابتٍ كانَ آخرُهم عَرْضاً على النبي عليـه الصلاة والسلام ، إذْ كانَ ذلك في عامِ وَفاتِهِ صلى الله عليه وآله وسلم .

وقـدْ كانَتْ هـذهِ المصـاحفُ وعـامـةُ الصُحفِ التي كُتِبَتْ في زَمنِ نُزولِ الوحي في خِـدْمَـةِ هـذا المصحفِ الـذي جُمِـعَ على عهـدِ الخليفـةِ الصدِّيق رضي الله تعالى عنهُ .

المرحَلة الثالِثة

الجمعُ الثّاني وَاسْتِنْساخُ مَصاحِف الأمْصار في عَهْدِ أمير المؤمنين عُثمان بن عَفّان

لَمّا امتدّتِ الفتوحاتُ الإسلاميةُ في زَمنِ أميرِ المؤمنينَ عثمانَ بنِ عفانَ رضي اللهُ عنهُ ، واتّسعتْ رُقْعَةُ الإسلام ، وانتشرَ الصحابةُ في أَقطارِ الأرضِ وأَمصارِهَا ، واختلطَ العربُ بغيرِهم مِنَ الأُمّةِ الإسلامية . وأَصبحَ أَهلُ كلِّ بَلَدٍ ومِصْرٍ مِنَ العالَمِ الإسلامي يتلقّونَ القرآنَ الكريمَ عمنْ وَفَدَ إليهم مِنْ رَهْطِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكانَ أَهلُ الشّامِ يقرؤونَ بقراءةِ أُبيٍّ بنِ كعبٍ ، وأَهلُ الكوفةِ يقرؤون بقراءةِ عبدِ اللهِ بنِ مسعود ، وهكذا كلُّ بَلَدٍ يقرأُ بقراءةِ مَنْ حَلَّ بهِ مِنَ الصحابةِ .

فكانَ بينَ تِلكَ القراءاتِ التي تحمّلَها الصحابةُ عَنْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم فُروقٌ في وُجُوهِ أَداءِ القرآنِ لاشتمالِهَا على الأَحْرُفِ السّبعةِ التي كانتْ رُخصةً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقبائلِ العربِ في قراءةِ القرآنِ بلغاتِهم ولهجاتِهم التي جَرَتْ عادتُهم باستعمالِها ، ونَصٌّ هذه الرخصة قد بلغَ رتبةَ التّواتر ، وهو قولُهُ صلى

الله عليه وآله وسلم : « إنّ هذا القرآن أُنْزِلَ على سَبعةِ أَحرفٍ ، فاقرؤوا ماتَيَسّرَ منها »[1] .

وقدْ كانَ وُرُودُ هذهِ الرخصةِ بعدَ الهجرةِ ؛ وذلكَ بعدَ أَنْ دخلَ الإسلام من القبائلِ المختلفةِ ، بلهجاتٍ مُتباينَةٍ يَصْعُبُ على كلٍّ منها تقليدُ غيرِ لهجتِها ، على مافيهم مِنَ الأُميّةِ ، ولذلكَ نجدُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ : « إنّي بُعثتُ إلى أَمّةٍ أميين ؛ منهُمُ الْغُلامُ والْخادِمُ والشّيخُ العاسِي والْعَجوز »[2] . وقد تَنَبَّهَ ابنُ قتيبةَ لاختلافِ لَهَجاتِ العربِ التي كانتْ سبباً في اختلافِ قراءاتِهم فقالَ : « ولو أَنَّ كلَّ فريقٍ من هؤلاءِ أُمِرَ أَنْ يزولَ عن لغتهِ ، ومَا جرى عليهِ اعتِيادُهُ طفلاً ونَاشِئاً وكهلاً ، لاشتدَّ ذلكَ عليه ، وعظمتِ الْمِحنَةُ فيهِ ، ولم يمْكنْهُ إلاّ بعدَ رياضةٍ للنّفسِ طويلةٍ ، وتذليلٍ للسانِ ، وقطعٍ للعادَةِ »[3] . وهذا ماقرّرَهُ الحافظُ ابنُ الجزري فقالَ : « كانتِ العربُ الذين نزلَ القرآنُ بلغتِهم ؛ لغاتُهم مُختلفةٌ ، وأَلسنتُهم شَتّى . فلو كُلِّفُوا العُدُولَ عن لغتهم ، والانتقالَ عن أَلسنتهم لكانَ مِنَ التكليفِ بما لا يُسْتَطاعُ »[4] .

---

(١) فتح الباري للحافظ ابن حجر ٢١/٩

(٢) تفسير الطبري ٣٥/١ ، والبرهان ٢٢٧/١

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٣٠

(٤) النشر في القراءات العشر ٢٢/١

في سنة ٢٥ للهجرة ، ما بينَ السَّنة الثانيةِ والثالثةِ من خلافَةِ أميرِ المؤمنين عثمان ، وبعدَ خمسَ عشرةَ سنة من التحاقِ رسول الله صلى الله عليه وآله سلم بالرفيق الأعلى .

فُتِحَتْ أرمينيةُ على يَدِ أهلِ الشّام والعراق ، وكانَ حُذيفةُ بنُ اليَمان - صاحبُ سِرِّ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم - على أهلِ المدائن ، وهي من جملةِ أعمالِ العراقِ ، فكانَ من الغازين في أرمينية[1] .

فتنازَعَ أهلُ الشامِ والعراقِ ؛ أهلُ الشامِ يقرؤون بقراءةِ أُبيٍّ بنِ كعبٍ ، فيأتُون بما لم يسمعْ بهِ أهلُ العراقِ ، وهؤلاءِ يقرؤون بقراءةِ عبدِ اللهِ بنِ مسعود ، فيأتون بما لم يسمعْ بهِ أهلُ الشامِ ، فخطّأ بعضُهم بعضاً[2] .

فكانَ مِمّنْ رأى ذلك الخلافُ أمينُ سِرِّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حُذيفةُ رضيْ اللهُ عنه ، فسمعَ ناساً مِنْ أهلِ حمصَ يزعُمون أنّ قراءتَهم خيرٌ من قراءةِ غيرِهم ، وأنّهم أخذوا القرآنَ عن المِقْدادِ ، ورأى أهلَ البَصرةِ يقولُون مثلَ ذلك ، وأنّهم قرؤُوا على أبي موسى الأشعري ، فغضِبَ حُذيفةُ حينَ رأى ذلكَ واحمرتْ عيناهُ ، فقامَ في

---

(١) فتح الباري ٣/٩

(٢) المصدر السابق ١٤/٩

النّاسِ خطيباً : فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليهِ ، ثم قالَ : « هكذا كانَ مَنْ قَبْلَكم اختلفوا ، واللهِ لأركبنّ إلى أميرِ المؤمنين » . وجاءَ فزعاً إلى المدينةِ ، ولم يدخلْ بيتَهُ حتى أتى عثمانَ ، فقال لَهُ : « يا أميرَ المؤمنين أدْرِكْ هذهِ الأمّةِ قبلَ أن يختلفوا في الكتابِ اختلافَ اليهودِ والنّصارى »[1] .

وقد صادفَ ذلكَ أنّ اختلافاً مثلَهُ وقعَ في المدينةِ بينَ مُتعلّمي القرآنِ ومُعلميهِ ، فتعاظَمَ ذلكَ في نفسِهِ ، فَخَطَبَ النّاسَ فقالَ : « أنتُم عندي تختلِفُون وتَلحِنون ؟! فَمَنْ نأى عنّي مِنْ أهلِ الأمصارِ أشدُّ فيه اختلافاً ، وأشدُّ لحناً .. ثم قالَ : اجتمعوا يا أصحابَ مُحمدٍ فاكتُبوا للنّاسِ إماماً[2] ـ أي : مُصحفاً يكونُ إماماً ـ فلمّا اجتمعَ الصحابةُ عندَهُ ذاكَرَهم في أمرِ اختلافِ النّاسِ في القراءةِ ، وقالَ : فقد بلغني أنّ بعضَهم يقولُ : إنّ قراءتي خيرٌ من قراءتِكَ ، وهذا يكاد أن يكونَ كفراً ؟! فقالوا لهُ : فما ترى ؟ قالَ : أرى أن نَجمعَ النّاسَ على مُصحفٍ واحدٍ ، فلا تكونُ فُرقةٌ ولا اختلافٌ ، فقالوا لهُ : نِعْمَ ما رأيتَ !! فأرسلَ أميرُ المؤمنين عثمان إلى أُمِّ المؤمنين حفصَة رضي الله عنها ، أن أرسلي إلينا بالصُحفِ نَنسُخُها في المصاحِفِ »[3] .

---

(1) فتح الباري ٩/١٤

(2) تفسير الطبري ١/٢١

(3) فتح الباري ٩/١٥

وفي (المرشدِ الوَجيزِ) لأبي شامةَ المقدسي : « أَنّ عثمانَ لما أَرادَ أن يجمعَ المصْحفَ خطبَ فقالَ : أُعْزِمُ على كلِّ رجلٍ منكم كانَ معهُ مِنْ كتابِ اللهِ عزّ وجلّ شيءٌ لَما جاءَ بهِ ، قال : فكان الرجلُ يجيءُ بالورقةِ والأديمِ ـ أي الجلد ـ فيه القرآنُ ، حتى جمعَ من ذلك شيئاً كثيراً . ثم دخلَ فدعاهُمْ رجلاً رجلاً يُناشِدُهُ : أَسمعتَهُ مِنْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو أَمْلَّهُ عليكَ ؟ فيقولُ : نعمْ . فلمّا فرغَ من ذلك قالَ : « مَنْ أَكْتَبُ الناسِ ؟ قالوا : كاتِبُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم زيدُ بنُ ثابتٍ ، قالَ : فأيُّ النّاسِ أَعربُ ؟ ـ أَي : أَفصحُ ـ قالُوا : سعيدُ بنُ العاص ـ وكان سعيدُ أشبهَ لهجة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، قال أَمير المؤمنين عثمان : فليُملِ سعيدٌ وليكتبْ زيدٌ ، فكتبَ مصاحفَ فرَّقَها في النّاسِ »[1] .

ثم ضمَّ إليهما : عبدَ اللهِ بنَ الزبير ، وعبدَ الرحمنِ بن الحارثِ بنَ هشام ، ثم قالَ للرهطِ القرشيين الثلاثة (سعيد وعبد الله وعبد الرحمن) : « إذا اختلفتُمْ أَنتُمْ وزيدُ بنُ ثابتٍ في شيءٍ مِنَ القرآن ، فاكتُبوه بلسانِ قريش ، فإنّما نزلَ بلسانِهم ـ أَي : غالبه ـ ثم احتاجوا إلى مَنْ يساعدُهم في الكتابةِ ، وذلكَ لاستنساخِ عدّةِ مصاحف تُرسَلُ إلى الأمصارِ ، فانضمَّ إلى جماعةِ زيدٍ جماعةٌ أُخرى »[2] .

---

(١) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ٦٥

(٢) فتح الباري ١٥/٩ ـ ١٦

وقد عَمدَ هؤلاء الكاتبون في كتابةِ المصحفِ وتوثيقِ نَصِّـهِ الكريمِ على مـا استقرتْ عليـهِ العَرْضَـةُ الأخيرةُ التي عـارَضَ بهـا النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم جبريلَ مرتين قبلَ وَفاتهِ .

قالَ أبو عبد الرحمن السُّلَميّ : ـ وكانَ قـدْ أخـذَ القرآنَ عن عثمانَ وعليٍّ وابنِ مسعود وزيدٍ وأُبيّ ـ : « قرأَ زيـدُ بنُ ثـابتٍ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم في العـامِ الـذي توفّـاهُ اللهُ فيـهِ مرتين ، وإنمـا سُمّيَتْ هذهِ القراءةِ قراءةُ زيدِ بنِ ثابتٍ ، لأنّه كتَبَهـا لرسولِ الله صلى الله عليه وآلـه وسلم ، وقرأَهَـا عليـهِ ، وشَهِـدَ العرضـةَ الأخيرةَ ، وكانَ يُقرِئُ النّاسَ بها حتى ماتَ ، ولذلـكَ اعتمـدَهُ أبو بكرٍ وعمرُ في جمعِـهِ ، وَوَلاّهُ عثمانُ كَتْبَ المصاحِفِ ، رضي اللهُ عنهم أجمعين »[1] ولـذلـك أتى الجمعُ الأخيرُ كاملاً تاماً وللهِ الحمدُ .

هذا . وإنّ حاصلَ ماشهدتْ بهِ الأخبارُ المتقدِّمةُ ، ومـا صرّحتْ بهِ أقوالُ الأئمة ، أنّ جمعَ القرآنِ على ما هو عليهِ الآن كان في زمنِ النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم بـإذنـهِ وأمرهِ ، وأنّ جمعَـهُ في الصُّحفِ خشيـةَ دثورهِ بقتلِ قُرّائهِ كانَ في زَمَنِ أبي بكرٍ رضي الله عنـه ، وأنّ نَسْخَـهُ في المصاحفِ حملاً للنّاسِ على اللّفظِ المكتوبِ حين نزولِه بـإملاءِ الْمَنْزول إليهِ صلى الله عليه وآلـه وسلم ، ومنعـاً من قراءةِ كلِّ لفـظٍ كان رُخصـةً

---

(١) المرشد الوجيز ٦٩

قبلَ زَمنِ عثمانَ رضي الله عنه ، وكأنَ أبا بكرٍ كانَ غرضُهُ أن يجمعَ القرآنَ مكتوباً مجتمعاً غيرَ مفرَّقٍ على اللّفظِ الذي أملاهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم على كَتَبةِ الوحي لِيُعْلَمَ ذلك ، ولم يَكلْ ذلكَ إلى حفظِ مَنْ حفظهُ خشيةَ فنائِهم بالشهادةِ ، ولاختلافِ لغاتِهم في حفظِهم على ما كانَ أُبيْحَ لهم مِنْ قراءتِه على سبعةِ أحرف ، فلمّا وَلِيَ عثمانُ وكثُرَ المسلمون وانتشروا في البلادِ وخيفَ عليهُمُ الفسادَ مِنِ اختلافهم في قراءاتِهم لاختلافِ لُغاتِهم حمَلَهم عثمانُ على ذلك اللفظِ الذي جمَعهُ زيدٌ في زَمنِ أبي بكرٍ ، وبقيَ ماعداهُ ، ليجمعَ النّاسَ على قراءةِ القرآنِ على وِفْقِ مانَزَلَ على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى وِفْقِ ما كانتْ عليهِ العَرضةُ الأخيرةُ ، لا كما رُخِّصَ للنّاسِ من قراءةِ القرآنِ على لهجاتِهم من قبلُ .

فقد اتّضحَ بما ذكرناهُ معنى مافعلَهُ كلٌّ واحدٍ من الإمامين : أبي بكرٍ وعثمانَ رضي الله عنهما ، وتبيّنَ أن قصدَ كلٍّ واحدٍ منهما غيرُ قصدِ الآخر ، فأبو بكر قصدَ جمعَهُ في مكانٍ واحدٍ ، ذُخراً للإسلامِ والمسلمين ، وعثمانُ قصدَ أن يقتصرَ الناسُ على تلاوةِ القرآن على اللفظِ الذي كُتِبَ بأمرِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يتعدَّوْهُ إلى غيرهِ من اللهجات التي كانتْ مباحةً لهم ، المنافيةِ لخطِّ المصحفِ الذي تضمّنَ أصولَ ما كُتِبَ بحضرةِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مقتضى العَرْضَةِ الأخيرةِ .

١ ـ مباحث متفرعة عن هذه المرحلة : (القرآنُ والخطُّ واللغةُ التي كُتِبَ بها)

مِنَ المقطوعِ بهِ نقلاً وعقلاً : أنّ القرآنَ الكريمَ كُتِبَ جميعُه بينَ يدي رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنّ الذين اتخذَهُمْ مِنْ أصحابِهِ لكتابةِ القرآنِ حينَ نُزولِهِ كانوا على قدرٍ رفيعٍ من الثقةِ والعنايةِ والرعايةِ والضبطِ والإتقانِ ومعرفةِ الكتابةِ العربيةِ معرفةً جيّدةً ، وأنّ ما أثبتوه مِنْ رسمِ النّصِّ القرآني بينَ يديهِ عليه الصلاةُ والسلام كانَ على غايةٍ مِنْ قُبولِ اللهِ تباركَ وتعالى لهُ ، إذْ لو كانَ مِنْ هؤلاءِ وعلى رأسهم زيدُ بنُ ثابتٍ خلْطٌ أو خبطٌ ، أو عدمُ إتقانٍ وضبطٍ ، لأخبرَ اللهُ نبيَّهُ بذلكَ فاتّخذَ غيرَهم مِمّنْ هوَ أجودُ وأحسنُ وأضبطُ . أمَا وأنّه لم يكنْ شيءٌ مِنْ ذلكَ . فإنّا نقطعُ بأنّ القرآنَ الكريمَ قد كُتِبَ بينَ يدي رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم على مُرادِ الله سبحانه ، وذلك لأنّه سبحانه وتعالى يأبى أنْ يُكتَبَ كلامُهُ على حالةٍ تَتَنافى مع قُدسيتِهِ وجلالتِهِ ، ويُوضِّحُ ذلكَ أكثرَ : أنّ الوحي كان مستمراً في النّزولِ ، والكتابةُ مُصاحبةٌ لهُ ، فلو حصلَ خطأً في الكتابةِ ، أو سهوٌ في مرسومِ الكلماتِ القرآنيَةِ ، لنبَّهَ الوحيُ على ذلك ، لأنّ سوءَ الكتابةِ ينتجُ عنهُ سوءُ القراءةِ ، فهلْ كانَ شيءٌ مِنْ ذلكَ حتى يُتَاحَ لأولئكَ المتقوّلين على رسمِ المصحفِ الشريفِ الذي تولّى كتابتَهُ كاتبُ الوحي الأمينُ زيدُ بنُ ثابتٍ ، الذي كانَ يكتبُ

الوحيَ لرسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمّ مِنْ بعـدهِ كتبَ القرآنَ لأبي بكرٍ أوّلاً ولعثمانَ ثانياً ؟! وهل كانَ الصحـابـةُ على قصرِ البـاعِ في عـدم إدراكِ السّـوء في الكتـابـةِ ، أو التقصيرِ في تحسينِهـا ، حتى جـاءَ المتفيهقون بـالنّقـدِ والتـوجيـهِ والتصـويب للرسم العثمـاني في المصحف الشريف ؟!

إنّ الواجبَ المؤكّدَ على المسلمينَ عامةً ، وعلى علمـائِهم خـاصـةً أن يقفُوا في وجهِ مَنْ يطعنُ برسمِ المصحفِ العثمـاني ، الـذي تمَّ على يـدي زيـدِ بنِ ثـابت كاتبِ الوحي ، وأنّ على النّـاسِ أن يضربوا بـأقـوالِهم عُرْضَ الحائـط ، ولِيَثِقُوا بـالرسم الـذي أُطلق عليـه (الرسم العثمـاني) نسبةً لأميرِ المؤمنين عثمانَ بنِ عفانَ رضي الله عنه .

وذلك لأنّ كتابتهُ أتمّتْ على وفْقِ ماأقرَّهُ عليـه الصلاةُ والسلامُ في الكتابةِ التي تَمّتْ بينَ يديهِ عليه الصلاة والسلام ، ثم كان الإقرارُ العامُّ التامُّ من غيرِ إكراهٍ ولا إجبارٍ من جميعِ الصحابـةِ الـذين لا يخـافون في اللهِ لَوْمَةَ لائمٍ ، ثم انتهى الإقرارُ وامتدَّ إلى التابعين وتابعي التـابعين ، فلم يُخـالفْ أحـدٌ منهم في هـذا الرسمِ ، ولم يَرِدْ أنّ أحـداً منهم فكّرَ في استبدالِ مَرْسُومِهِ بمرسومٍ غيرِه حتى في عهدِ ازدهارِ التّدوين والتأليف ، فكان الجميعُ على احترامِهِ واتّباعِهِ ، وعدمِ إحداثِ أيّ تغييرٍ فيهِ .

قالَ الحافظُ أبو عمرو الـداني في كتـابـهِ (المقنع في معرفـةِ مرسومِ

مصاحفِ أهلِ الأمصار ١١٤) : « فإنْ سألَ سـائلٌ عن السَّبَبِ الموجِبِ لاختلافِ مرسومِ هذهِ الحروفِ الزوائد في المصـاحف ؟ قلتُ : السَّبَبُ في ذلـك عنـدنـا : أنّ أميرَ المؤمنين عثمانَ بنَ عفـانَ لّمـا جمـعَ القرآنَ في المصـاحِفِ ، ونسخَهـا على صورةٍ واحـدةٍ ، وآثرَ في رسمِهـا لغـةَ قريشٍ دونَ غيرِهـا ممّـا لا يصحُ ولا يثبتُ نظراً للأمـة ، واحتيـاطـاً على أهلِ المِلّـةِ ، وثبتَ عنـدَهُ أنّ هـذهِ الحروف مِنْ عنـدِ اللهِ عزّ وجلّ كـذلـك منزّلـةٌ ، ومن رسولِ الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم مسموعـةٌ ، وعَلِمَ أنّ جمعَها في مصحفٍ واحدٍ على تلك الحالِ غيرُ مُتمكّنٍ إلاّ بـإعـادةِ الكلمـةِ مرتين ، وفي رسم ذلك كذلكَ من التخليطِ والتغييرِ للمرسوم ما لا خفاءَ بهِ ، ففرّقَها في المصاحِفِ لذلك ، فجاءتْ مثبتةً في بعضِها ، ومحـذوفـةً في بعضها ، لكي تحفظَها الأمـةُ كما نَزَلتْ من عنـدِ اللهِ عزّ وجلّ ، وعلى ما سُمِعَتْ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهـذا سببُ اختلافِ مرسومِها في مصاحِفِ أهل الأمصار » .

وفي المقنـع ١١٨ : « عن أبي عُبيـد قـالَ : هـذهِ الحروفُ التي اختُلِفَتْ في مصـاحف الأمصـار مثبتـةٌ بينَ اللّـوحين ، وهي كلُّهـا منسوخَةٌ مِنَ الإمام[1] الذي كَتَبَـهُ عثمانُ ، ثم بعثَ إلى كلِّ أُفُقٍ ممّـا نَسَخَ بمصحَفٍ ، وهي كلُّها كلامُ اللهِ عزّ وجلّ » .

---

(١) أي : نسخت من المصحف الإمام .

وقد سُئِلَ الإمامُ مالـك : « أرأيتَ مَنِ استكتَبَ مُصْحَفـاً اليومَ ، أترى أن يُكتبَ على ماأحدثَ النّاسُ مِنَ الهجاء اليوم ؟ فقالَ : لاأرى ذلـك ، ولكنْ يكتب على الْكَتْبَـةِ الأولى » ، قـال أبـو عمرو الـداني : « ولا مُخالِفَ لهُ في ذلك مِنْ علماءِ الأُمّةِ » .

ولذلك يَرِدُ التساؤلُ التالي :

هل رسمُ المصحفِ توقِيفِيٌ بتقريرٍ منـهُ عليـهِ الصلاةُ والسـلامُ أم لا ؟.. والإجابةُ على ذلك فيما يلي :

٢ ـ هـل رسم المصحف تـوقيفي : بتقرير منـه عليــه الصـلاة والسلام ؟

ذهبَ جمهـورُ العلمـاءِ إلى أَنَّ رسمَ المصحفِ الـذي كُتِبَ في زَمَنِ عثمانَ على يَـديْ كاتبِ الوحي ، (زيـد بنِ ثـابت) تـوقيفيٌ لا تجـوزُ مخالفتُهُ في كتابةِ المصاحِفِ وطبعِها ، واستدلوا بما يلي :

أولاً ـ إنّ القرآنَ الكريمَ كُتِبَ كلُّـه بينَ يـدي رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله وسلم ، وكانَ عليـه الصلاةُ والسلامُ يُملي على كاتبِ الْوَحي ، ويُرشدُهُ في الكتابـةِ بوحيٍ من جبريلَ عليـه السلام (نـاظِرِ الْوَحي) روى الطبراني بسندٍ رجالُه ثقاتٌ عن زيدِ بنِ ثابتٍ أَنّه قالَ : « كنتُ أَكتبُ الْـوَحيَ عنـدَ رسـولِ الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم وهـو يُملي

عليّ ، فإذا فَرَغْتُ قالَ : اقرأْ ، فأقرأُهُ ، فإذا كانَ فيهِ سَقْطٌ أَقامَهُ ، ثم أَخْرُجُ بهِ إلى النّاس » .

ثانياً - إطباقُ الْقُرّاءِ جميعاً على قَواعِدِ رَسْمِ الْمُصحفِ الذي أجمعَ الصحابةُ جميعاً على وُجوبِ اتّباعِهِ وعدمِ مُخالفتِهِ وإجماعُهم لم يأتِ هكذا . وإنّما كانَ على درايةٍ واضحةٍ في أنّ رسمَهُ توقيفيٌ من رسولِ اللهِ عليه الصلاة والسلام حسبَما يقتضي النّصُّ الكريمُ . ولذلك نَجدُ نصوصَ العلماءِ صريحةً في وُجُوبِ التقيّدِ بهِ وعدمِ مخالفتهِ ، ففي (الْكِتاب) لابن درستويه ٧ : « وجدنَا كتابَ اللهِ جلَّ ذكرُهُ لا يُقاسُ هِجَاؤُهُ ، ولا يُخالَفُ خَطُّهُ ، ولكنَّهُ يُتلقَّى بالْقَبولِ على ما أُودِعَ المصحفُ » . وقال الإمامُ أحمدُ : « يحرمُ مُخالفةُ خطِّ مصحفِ عثمانَ في واوٍ أو ياءٍ أو ألفٍ أو نحوِ ذلك » . وقال الحافظُ البيهقي في شُعبِ الإيمان : « مَن كتبَ مُصحفاً ينبغي أن يُحافِظَ على الْهِجَاءِ الذي كتبوا بهِ تِلكَ المصاحِفِ ، ولا يُخالِفُهم فيهِ ، ولا يُغيرُ ممّا كتبوهُ شيئاً ، فإنّهم كانوا أكثرَ علماً ، وأصدقَ قلباً ولساناً ، وأعظمَ أمانةً ، فلا ينبغي أنْ نظنَّ بأنفسِنَا استدراكاً عليهم » .

ثالثاً - إجماعُ الْقُرّاءِ قَاطِبَةً على أنّ الرسمَ العثماني يحتملُ وُجُوهَ القراءاتِ المتواترةِ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ، ولذلكَ شرطَ علماءُ الأصولِ (في القراءاتِ المتواترة) أنّ تكونَ موافقةً للرسم

العثماني . ولهذا نجدُ جميعَ القراءاتِ العشَرةِ المتواترةِ مطابقةً للرسْمِ العثماني كلَّ الْمُطابقةِ إذا كانَ على شكلهِ الأوّلِ من غيرِ تشكيلٍ ولا تنقيط .

رابعاً ـ لو كانَ الرسمُ العثماني غيرَ توقيفي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لكانَ تقريريّاً منهُ عليهِ الصلاة والسلام ، وهذهِ حُجةٌ شرعيةٌ لا مفرّ منها ، لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يُشْرِفُ على كتابةِ المصحفِ بنفسهِ فإنْ كانَ فيهِ سَقْطٌ أقامَهُ ، كما قالَ زيدُ بنُ ثابت فيما تقدم وتقريرُهُ عليه الصلاة والسلام كقولِهِ وفعلِهِ على حدٍّ سَواءٍ .

فَمَنْ زعَمَ أنّ الرسمَ العثماني الذي تمَّ على يدي زيدِ بنِ ثابت ، كانَ على ما تيسّرَ هكذا . على غيرِ معرفةٍ ولا ضبطٍ ، فهو طاعِنٌ بتقريرِ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على صحةِ كتابةِ القرآنِ بينَ يديهِ . أو أنّ الله تبارك وتعالى لم يُطْلِعْ رسولَهُ على ما وَقَعَ مِنَ الأخطاءِ في كتابةِ كَلامِهِ الكريمِ . وذلك مستحيلٌ على الله سبحانه وتعالى ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الْحِجر : ٩] .

٣ ـ خصائصُ الرسم العثماني :

وللرسم العثماني للقرآن الكريم خصائصُ كثيرةٌ ، نُجملُ بعضَها فيما يلي :

أولاً : اختصاصُهُ بترتيبِ الآياتِ في مواضِعها مِنَ السّوَر ، ثم ترتيبِ السّوَرِ في مواضِعها من المصحفِ الشريفِ ، وأنّ ذلك توقيفي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن جبريل عن ربِّ العالمين سبحانه وتعالى ، وقد نَصَّ الحافظُ السيوطي في (الإتقان) على أنّ أحاديثَ ترتيبِ الآياتِ في السّوَرِ ، وترتيبِ السّوَرِ في المصحفِ ، متواترةٌ عن الصحابةِ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ثانياً : اختصاصُهُ بقواعِدِ الرسْمِ السبعةِ وهي : الحذفُ ، والزيادةُ ، والهمْزةُ ، والْبَدلُ ، والْوَصْلُ ، والْفَصْلُ ، وما فيهِ قراءتان فكُتِبَ على إحداها . وذلك يقتضي وجوبُ أخذِ القرآنِ وتلقي تلاوتِه عن طريقِ المشافَهةِ ، وبذلك يتحقَّقُ اتّصالُ السَّنَد من المقرئ الْمُعَلِّمِ إلى رسولِ الله عليه الصلاة والسلام ، إلى ربِّ العالمين سبحانه وتعالى ، ولا يتحقَّقُ اتّصالُ السَّنَدِ إلاّ عن طريقِ التلقي المباشر : قارئٌ عن قارئٍ . إلى نهاية السَّنَدِ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومِنْ غيرِ تلقي تلاوةِ القرآنِ مُشافهةً عن الْمُقْرِئين يقعُ تالي القرآن في اللَّحنِ والخطأ في تلاوتِه وذلك حرامٌ .

ثالثاً : احتمالُهُ جميعَ وجُوهِ القراءاتِ المتواترةِ عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، حتى أصبحَ من شروطِ كونِ القراءةِ متواترةً موافقتُها للرسْمِ العثماني ، والقراءةِ المخالفةِ له تُعتبر من الشَّواذِّ ، كما هو مُبيّنٌ في كُتُبِ القراءاتِ الْمُعْتبرة .

رابعاً : تضمّنُهُ أسرارَ التنزيلِ الْحَكيم ، فمثلاً :

قولُهُ تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَييْدٍ وإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] ، بيائين ، وذلك للإيماءِ إلى قدرةِ الخالقِ تباركَ وتعالى التي بنَى بها السَّماءَ وأنّها لا تُشبهها قوةً وذلك على حدِّ القاعدةِ المشهورةِ : (زيادةُ المبنَى تدلُّ على زيادةِ المعنَى) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيرِ ﴾ [الإسراء : ١١] ، وقوله : ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ ﴾ [الشورى : ٢٤] ، وقوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ [القمر : ٦] ، وقوله : ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ [اقرأ : ١٨] ، فإنّها رُسِمَتْ في المصاحف العثمانية بغير واوٍ ، وفي ذلك سِرٌّ دقيقٌ لِمَنْ أمعنَ النظرَ فيها ، فالسرُّ في حذفِها التنبيهُ على سُرعةِ وقوعِ الفعل وسهولتِهِ على الفاعل ، وشدةِ قبولِ المتأثّرِ بهِ في الوجودِ . أمّا سِرُّ الحذفِ في الأولى : فللإشارةِ إلى أنّ الإنسانَ يُسارِعُ إلى الدعاء بالشّرِّ ، كما يُسارع إلى الخيرِ ، بل إثباتُ الشرِّ إليهِ من جهة ذاته أقربُ إليهِ من الخير ، ولا سيما عندَ الغضبِ ،

وأمّا سِرُّ الحذفِ في الثانية : فللإشارة إلى سُرعَةِ ذهابِ الْبَاطِلِ واضمحلالِهِ ، وأمّا سِرُّ الحذفِ في الثالثةِ : فللإشارةِ إلى سرعةِ الدّعاءِ وسرعةِ إجابةِ الدَّاعِين . وأمّا سِرُّ الحذفِ في الرابعةِ : فللإشارةِ إلى سرعةِ الفعلِ وإجابَةِ الزَّبَانية .

وقولُهُ تعالى : ﴿ بِأَييكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ [القلم : ٦] . أي : الذي فتنَهُ الشيطانُ ، فزيادةُ الياءِ ﴿ بِأَيّكُمُ ﴾ للإشارةِ إلى أنّ الذي فتنَهُ الشيطانُ هُم المشركون ، وفتنتُهُ بلغتْ بهم الغايةَ ، وتجاوزتِ الحدَّ ، وأنّ المفتونين هُمْ ، لاأنتَ ، لأنّكَ رسولُ الله ، فَمَنْ رَماكَ بهِ فقدْ رجعَ على نفسهِ بالضلال ، وبذلك يتوافقُ الرسمُ والمعنى ، والكلامُ في ظاهرهِ ترديدٌ بينَ أمرَين ، وهو في الحقيقةِ يُرادُ بهِ ماذُكِرَ ، وهو لَونٌ مِنْ ألوانِ الْحِجاجِ في القرآنِ الكريم .

وقوله تعالى : ﴿ تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ [يُوسفَ : ٨٥] بزيادةِ ألفِ تفتؤُ للإشارةِ إلى كثرةِ ذلك ، وأنّ يعقوبَ عليهِ السلامُ ماكانَ ينفكُّ عن ذكرِ ابنِهِ يوسفَ .

وقولُهُ تعالى : ﴿ وأَنَّكَ لاتَظْمَؤُا فيهَا وَلا تَضْحَى ﴾ [طَه : ١١٩] بزيادة ألفِ تظمؤُ للدَّلالةِ على دوامِ عدمِ الظمأ ، واستمرارِ الرَّي في الجنَّةِ .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ ﴾ [الفرقان : ٧٧] ، بزيادةِ ألفِ يعبؤُ للإشارةِ إلى مبالغةِ عدمِ عنايةِ اللهِ سبحانه بمَنْ لا يعبدُهُ ، ولا يتضرَّعُ إليهِ .

وهكذا ... جميعُ الأحرفِ التي وردتْ في الرسْمَ العثماني زيادةً على أصلِ الكلمةِ القرآنيةِ فيها من الأسرارِ ما يُشير إلى أنّ هذا الرسْمَ إمّا توقيفي وإمّا تقريريٌ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وكذلك الحذفُ في الآيات التاليةِ وأمثالِها :

قوله تعالى : ﴿ والّذينَ سَعَوْ في آياتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ ، [سبأ : ٥] فحذفَ ألِفَ سَعَوْا ، للإشارةِ إلى أنّه سعيٌ باطلٌ لا يصحُ أن يكونَ له ثباتٌ في الوُجودِ ، وأنّهم لن يحصلوا منه على طائلٍ يتحدّونَ بهِ .

ومثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وجاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] وفي : ﴿ فَقَدْ جاءُو ظُلماً وزُوراً ﴾ [الفرقان : ٤] ، وفي : ﴿ وَجاءُوا أبَاهُم عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ ، ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قميصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : ١٦ و ١٨] وفي : ﴿ وعَتَوْ عُتُواً كبيراً ﴾ [الفرقان : ٢١] كلُّ ذلكَ للدّلالةِ على أنّهُ باطلٌ ولا أثرَ لَهُ يُذكُر في الوجودِ . واللهُ أعلمُ .

٤ ـ اللغة التي كتب بها القرآن الكريم :

روى البخاريُّ في صحيحهِ في كتابِ (فضائلِ القرآنِ ـ باب نزولِ القرآنِ بلسانِ قريشٍ والعرب) عن عثمانَ بنِ عفانَ أنّه قالَ للرهطِ الذين كلّفهم بكتابةِ المصحفِ : « إذا اختلفتُم أنتُم وزيدُ بنُ ثابتٍ في عربيّةٍ من عربيّةِ القرآنِ فاكتبُوها بلسانِ قريش ، فإنّ القرآنَ أُنزلَ بلسانِهم ، فَفَعلُوا » .

واللّسانُ معناهُ : اللّهجةُ التي تخصُّ كلَّ قبيلةٍ من القبائلِ العربيةِ ، وإلاّ فإنّ اللهَ سبحانه قالَ : ﴿ إنّا أنزلناهُ قرآناً عربياً ﴾ [يوسف : ٢] . فبديهي أنّ كتابتَهُ في المصحفِ إنّما هي باللغةِ العربيةِ والخطِّ العربي .

فأصبحَ معنا : أنّ اللغةَ التي كُتِبَ بها القرآنُ الكريمُ هي اللّهجةُ التي اختِيرَتْ له من قِبَلِ رَبِّ العالمين تبارك وتعالى . فإنّ قولَ عثمانَ : « بلسان قريش » ليسَ مجالُهُ الرأيَ والاختيارَ ، فتعيّنَ أنّه كانَ بتوقيفٍ من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله وسلم ، وعلى هذا ... فلا تجوزُ كتابةُ القرآنِ بغيرِ لهجةِ قريشٍ .

وفي (فتح الباري) للحافظِ ابنِ حجر : « أنّ عمرَ بنَ الخطاب كتبَ إلى ابنِ مسعودٍ : إنّ القرآنَ نزلَ بلسانِ قريشٍ ، فأقرئِ النّاسَ بلغةِ قريشٍ ، لا بِلُغَةِ هُذَيلٍ » .

وقـولُ عمرَ وعثمانَ : « بلسـان قريش » معنــاهُ : أنّ القرآنَ نـزلَ أوّلاً بلغـةِ قريشٍ ثم أُبيْـحَ في قراءَتِـهِ وكتـابتِـهِ على مـا رُخِّصَ بــهِ مِنَ اللّهجاتِ العربيّـةِ الأخرى التي جعلَهـا الله تعـالى تسهيلاً وتيسيراً لهـذهِ الأمةِ الأُميّةِ التي لاعهدَ لها بالقراءَةِ ولا بالكتابةِ .

أو أنّ معنى قولهِمَا : أنّه أُنزِلَ غالبـاً بلهجـةِ قريشٍ ، لأنّهـا كانتْ أمَّ العربِ ، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قريش ، وهذهِ القبيلةُ سُمّيَتْ بهـذا الاسمِ لأنّهـا من قريش الـذي هو من ولـد إسماعيلَ عليـه السلام ، وأولادُ إسماعيـلَ أفصـحُ من أولادِ يَعْربِ بنِ قحطـانَ ، الذين تفرّعَ منهم أهلُ اليمن وغيرُهم من أهلِ العرب .. إذ قحطان إمّـا هو ابنُ هود ، أو : ابنُ فخشـذ بنُ سـام بنُ نوحٍ عليـه السـلام ، كما في لسانِ العرب ، لابن منظور .

وهنا يُواجِهُنا سؤالٌ وهو : ما هذهِ اللّهجـاتِ العربيّـةِ التي رُخِّصَ بها لقارئي القرآنِ في عهدِ النبوّةِ ؟ والجوابُ كما يلي :

في الصحيحين أنّ رسـولَ الله صلى الله عليــه وآلــه وسلم قــالَ : « أقرأَني جبريلُ عليـه السلامُ على حرفٍ واحـدٍ ، فراجعتُـهُ ، فلم أزلْ أَستزيدُهُ ، ويزيـدُني ، حتى انتَهى إلى سبعـةِ أحرفٍ » . [البخـاري ـ فضائل القرآن ـ ٥ ، ومسلم ـ مسافرين ـ ٢٧٢] .

قـال في لسـان العرب [٤١/٩] : « وكلُّ كلمـة تُقرأُ على الوُجـوهِ

من القرآنِ تُسمّى حرفاً ، تقولُ : هذا في حرفِ ابنِ مسعودٍ أي : في قراءةِ ابنِ مسعودٍ .. والحرفُ : القراءةُ التي تُقرأُ على أَوْجُهٍ ، وما جاءَ في الحديثِ من قولِهِ عليه الصلاة والسلام : « نَزَلَ القرآنُ على سبعةِ أحرفٍ ، كلِّها شافٍ كَافٍ » ، أرادَ بالحرفِ : اللغةَ ، قال أبو عبيد وأبو العباس : « نزلَ على سبعِ لُغاتٍ مِنْ لُغاتِ العربِ ، قال : وليسَ معناهُ أَنْ يكونَ في الحرفِ الواحدِ سبعةُ أوجهٍ ، هذا لم يُسمعْ بهِ ، قال : ولكن يُقالُ : هذه اللغاتُ متفرقةٌ في القرآنِ ، فبعضُهُ بلغةِ قريشٍ ـ وهو الغالب ـ وبعضهُ بلغةِ هُذَيل . وهكذا سائرُ اللُّغاتِ . ومعانيها في هذا كلِّهِ واحدٌ » .

ولهذا . نَجِدُ الكثيرَ من الرواياتِ الثابتةِ عن الصحابةِ في رجوعِهِم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينَ يسمعون من أحدِهِم قراءةً لم يكونُوا سمعوها من قبلُ ، فَلْنُصْغِ إلى بعضِها ، فإنّها تجليةٌ لهذا الأمرِ :

ففي صحيحِ البخاري [فضائل القرآن ٥ و ٢٧] . أَنّ عمرَ بنَ الخطاب قالَ : « سمعتُ هشامَ بنَ حكيم يقرأُ سُورةَ الفُرْقَانِ في حياةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فاستمعتُ لقراءتِهِ ، فإذا هو يقرأُ على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقرِئْنِيها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم ، فكدتُ أُساوِرُهُ في الصلاةِ ، فتصبّرتُ حتى سلّمَ ، فلبّبْتُهُ بردائِهِ

فقلتُ : مَنْ أقرأَكَ هذهِ السورةَ التي سمعتُكَ تقرأُ ؟ قالَ : أَقرأَنِيَها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : كذبت ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدْ أَقرأَنيها على غيرِ ما قرأتَ ، فانطلقتُ بهِ أَقودُهُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقلتُ : إنّي سمعتُ هذا يقرأُ سورةَ الفرقانِ على حروفٍ لم تُقرئْنِيَها ، فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمرَ : أَرسلْهُ ـ أي : اتركه ـ فأرسلَهُ عمرُ ، فقالَ لهشام : اقرأْ ياهشامُ ، فقرأَ عليهِ القراءةَ التي سمعتُهُ يقرأُ ، فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم : كذلِكَ أُنْزِلَتْ ، ثم قالَ : اقرأْ ياعمرُ ، فقرأتُ القِرَاءةَ التي أَقرأَنِي ، فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم : كذلِكَ أُنْزِلتْ ، إنّ هذا القرآنَ أُنزلَ على سبعةِ أَحرفٍ ، فاقرؤوا ماتيسَّرَ منهُ » .

- وفي صحيحِ مسلم [مسافرين ٢٧٣ و ٢٧٤] : أَنّ أُبيَّ بنَ كعبٍ قالَ : « كنتُ في المسجدِ ، فدخلَ رجلٌ فصلى ، فقرأَ قراءةً أنكرتُها ، ثمّ دخلَ آخرُ ، فقرأَ قراءةً سِوَى قراءةِ صاحبِهِ ، فلمّا قضينَا الصلاةَ دخلنَا جميعاً على رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلتُ : إنّ هذا قرأَ قراءةً أَنكرتُها عليه ، ودخلَ آخرُ فقرأَ سِوَى قراءةِ صاحبِهِ ، فأقرأَهُمَا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فَقَرأَا ، فحسَّنَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم شأنَهمَا ، فسقطَ في نفسي مِنَ التكذيبِ ، ولاَ إذْ كنتُ في الجاهليةِ ، فلمّا رأى النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم ماقدْ

غشيني ضربَ في صدرِي ، فَفِضْتُ عَرَقاً ، وكأنّما أنظرُ إلى الله عزّ وجلّ فَرَقاً ـ أي : خوفاً ـ فقالَ : ياأُبيّ إنّ ربّي أرسلَ إليَّ أنِ اقرأ القرآنَ على حرفٍ ، فردَدْتُ إليهِ أن هوِّنْ على أُمتي ، فردَّ إليّ الثانيةَ : اقرأْه على حرفين ، فرددْتُ إليهِ يُهوّنُ على أمتي فردَّ إليَّ في الثالثةِ : اقرأْه على سبعةِ أَحرفٍ ، ولكَ بكلِّ ردّةٍ رددتُكَها مسألةٌ تسألُنِيَها فقلتُ : اللهمَّ اغفرْ لأمتي ، وأَخّرْت الثالثةَ ليومٍ يرغبُ إليَّ الخلقُ كلُّهم حتى إبراهيمَ صلى الله عليه وسلم » .

وفي مسندِ أَحمد [٢٨٦/٢ و ٣٠٠] بسندٍ صحيح : عن أَبي الجَهْمِ « أَنّ رجلين اختلفَا في آيةٍ من القرآنِ قالَ هذا : تلقنتُها من رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال الآخر : تلقنتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألا النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فقالَ : القرآنُ يُقرأُ على سبعةِ أَحرفٍ فلا تُماروا في القرآنِ ، فإنّ مِراءً في القرآنِ كُفْرٌ » . والمِراءُ : الجِدَالُ على سبيلِ الشّكِّ والرِّيبَةِ .

هذا . وقد اختلفَ العلماءُ في معنى قولِه عليه الصلاة والسلام في نزولِ القرآنِ على سبعةِ أَحرفٍ ، حتى وصلتْ أَقوالُهم في ذلك إلى خمسةٍ وثلاثينَ قولاً . قالَ الإمامُ البغوي صاحبُ (شرحِ السنة) . « أَظهرُ الأقاويلِ وأَصحُّها وأَشبهُها بظاهرِ الحديث : أَنّ المرادَ من هذهِ الحروفِ : اللّغاتُ ، وهو أن يقرأَ كلُّ قومٍ منَ العربِ بلغتِهم ، وما

جرتْ عليه عادتُهم من الإدغـامِ والإظهـارِ والإمَـالـةِ والتفخيمِ والإشمامِ والإتمامِ والهمزِ والتَّليين ، وغير ذلك من وُجوهِ اللّغاتِ إلى سبعةِ أَوْجُـهٍ منها » .

ثم قالَ : « ولا يكونُ هـذا الاختلافُ داخلاً تحتَ قولِـه تعـالى : ﴿ وَلَـوْ كانَ مِنْ عِنْـدِ غَيْرِ اللهِ لَـوَجَـدوا فيــهِ اخْتِـلافَـاً كَثيراً ﴾ ، [النساء : ٨٢] إذ ليسَ معنى هذهِ الحروفِ أَن يقرأَ كلٌّ فَريقٍ بما شـاءَ ممّـا يُوافِقُ لغتَـهُ مِنْ غيرِ توقيفٍ ، بل كلٌّ هـذهِ الحروفِ منصـوصَـةٌ ، وكلُّهـا كلامُ اللهِ عزّ وجـلّ ، نـزلَ بهـا الروحُ الأمينُ على النبيّ صلى الله عليه وآلـه وسلم ، يـدلُ عليـه قولُـهُ عليـه الصلاةُ والسلامُ : « إنّ هـذا القرآنَ أُنزِلَ على سبعـةِ أَحرفٍ » . فجعلَ الأحرف كلهـا منزّلـةً ، وكانَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يُعارِضُ جبريلَ عليـه السلام في كلِّ شهرِ رمضـانَ بمـا يجتمـعُ عنـدَهُ مِنَ القرآنِ ، فيُثبتُ اللهُ فيـهِ مـاشـاءَ ، وينسخُ ما يشاءُ ، وكان يعرضُ عليـه في كلِّ عَرْضَـةٍ وجهـاً من الوُجوهِ التي أَباحَ اللهُ لـه أن يقرأَ القرآنَ بـهِ ، وكان يُجوِّز لرسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمرِ الله تعالى أَن يقرأَ ويُقرِئَ بجميعِ ذلكَ ، وهي كلُّها متفقةُ المعاني وإن اختلفَ بعضُ حُرُوفِها » .

المرحلة الرابعة

ضبط أوجه القراءات

وهي تشتمل على الأبحاث التالية :

البحث الأول :

التعريف بالقراءات القرآنية .

البحث الثاني :

مراحل نشأة القراءات .

البحث الثالث :

مصادر القراءات .

البحث الرابع :

أسباب اختلاف القراءات .

البحث الخامس :

القراءات الشاذّة .

البحث الأول

التعريف بالقراءات القرآنية

القراءات ـ المقرئ ـ القارئ

القراءاتُ :

هي علمٌ بكيفيّةِ أداءِ كلماتِ القرآنِ ، واختلافِها بعزوِ النَّاقِلَة .
خرجَ ـ عن هذا التعريف ـ النحوُ واللغةُ والتفسيرُ وما أشبَهَ ذلكَ .

المقرئُ :

هو العالمُ بها ، رواها مشافَهةً ، فلو حَفِظَ التَّيْسيرَ مثلاً ، ليسَ لـه أن يُقرئَ بما فيهِ إنْ لم يُشافِهه مَن شُوفِهَ بهِ مُسلسَلاً ؛ لأنّ في القراءاتِ أشياءَ لا تُحْكَمُ إلاّ بالسّماعِ والمشافهة .

القارئ :

هو المبتدئُ مَن شرعَ في الإفرادِ إلى أنْ يُفردَ ثلاثـاً من القراءاتِ .
والْمُنتهي مَن نَقَلَ مِنَ القراءاتِ أكثَرها .

[منجد المقرئين لابن الجزري : ٣]

القراءات واللهجات العربيّة :

روى البخاري ومسلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أقرأني جبريلُ عليه السلام على حَرْفٍ واحدٍ ، فراجعتُه ، فلم أزلْ أستزيدُهُ ، ويزيدُني ، حتى انتهى إلى سبعة أحرفٍ » .

[البخاري ـ فضائل القرآن : ٥ ، مسلم ـ مسافرين : ٢٧٢]

قال في لسان العرب كلُّ كلمةٍ تُقرأ على الوُجُوه من القرآن تُسمّى حرفاً ، تقول : هذا في حرفِ ابنِ مسعودٍ ؛ أي : في قراءةِ ابنِ مسعود . والحرفُ : القراءةُ التي تُقرَأُ على أوجهٍ وما جاءَ في الحديث من قولهِ عليه الصلاة والسلام : « نَزَلَ القرآنُ على سبعةِ أحرفٍ ، كلِّها شافٍ كافٍ » ، أرادَ بالحرفِ : اللغةَ .

[لسان العرب : ٤١/٩] .

وجاء فيه :

عن أبي العباس وأبي عُبيد : « نزل ـ القرآن ـ على سبع لُغاتٍ من لُغاتِ العرب ؛ وليس معناه أن يكونَ في الحرفِ الواحد سبعةُ أوجهٍ ، هذا لم يُسمعْ به . ولكن هذه اللّغات مُتفرّقات في القرآن ، فبعضه بلغة قريش ـ وهو الغالب ـ وبعض بلغة هُذيل ، وهكذا سائر اللغات ، ومعانيها في هذا كله واحد » .

[المصدر المذكور]

ولهذا نجدُ الكثيرَ من الروايات الثابتة عن الصحابة في رجوعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين يسمعون من أحدهم قراءةً لم يكونوا سمعوها من قبل .

فقد روى الإمامُ أحمد بسند صحيح : عن أبي الْجَهْمِ « أنّ رجلين اختلفا في آية من القرآن ، قال هذا : تلقنتُها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال الآخر : تلقنتُها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فسألا النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : القرآنُ يُقرأ على سبعة أحرف ، فلا تُماروا في القرآن ، فإنّ مِراءً في القرآن كفرٌ » .
والْمِراءُ : الجدال على سبيل الشك والريبة .

[مسند الإمام أحمد : ٢٨٦/٢ و ٣٠٠] .

وإنّ المراد من هذه الحروف : اللّغات ـ أي : اللهجات ـ وهو أن يقرأ كلُّ قوم من العرب بلهجتهم وما جرت عليه عادتهم من الإدغام والإظهار والإمالة والتفخيم والإشمام والإتمام والهمز والتليين ، وغير ذلك من وجوه اللهجات إلى سبعة أوجه منها . ولا يكون هذا الاختلاف داخلاً تحت قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ [النساء : ٨٢] ، إذْ ليس معنى هذه الحروف أن يقرأ كلُّ فريقٍ بما شاء مِمّا يُوافِق لغتَه مِن غير توقيف من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك ، بل كل هذه الحروف

منصوص عليها من قِبَلِه عليه الصلاة والسلام ، وكلها من عند الله عزّ وجلّ ، نزل بها جبريل الأمين عليه السلام .

قال الإمام مكي بن أبي طالب القيسي : « هذه القراءات كلُّها التي يقرأُ بها الناس اليوم وصحت روايتُها عن الأئمة ؛ إنّما هي جُزْءٌ من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ووافق اللفظُ بها خطَّ المصحف ؛ مصحف عثمان ، الذي أجمع الصحابة فمن بعدهم عليه » .

وقال : « فأمّا مَنْ ظنّ أنّ قراءةَ كل واحدٍ من هؤلاء القرّاء كَنَافعٍ وعاصمٍ وأبي عمرو ؛ أحدُ الحروف السبعة التي نصَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليها ، فذلك منه غَلَطٌ عظيم » .

وقال أيضاً : « وحصل من جميع ماذكرنا وبيّنّا أنّ الذي في أيدينا من القرآن هو ما في مصحف عثمان الذي أجمع المسلمون عليه وأخذناه بإجماعٍ يقطع على صحته وصدقه والذي في أيدينا من القراءاتِ هو ما وافقَ خطَّ ذلك المصحف من القراءات التي نزل بها القرآن الكريم . وسقطَ العملَ بالقراءات التي تُخالف خطَّ المصحف » ، وذلك لانتهاء زمن الرخصة التي كانت في عهد النبوّة بأن يقرأ كلٌّ قومٍ بلهجتهم .

[الإبانة عن معاني القراءات : ٢١ ـ ٣١]

علم القراءات وعلم التجويد :

يتعاضدُ علمُ القراءات وعلمُ التجويد في بيانِ ما يرتبطُ بتلاوةِ القرآن الكريم من مسائل القراءةِ وأدائها وما يتعلّقُ بهما من القضايا .

فالقراءاتُ : علمٌ بكيفية أداء كلمات القرآن على اختلاف روايتها ونقلها معزوّة لناقليها . والمقصود من (كلمات القرآن) في هذا التعريف هو : « ماوقع الاختلاف في وجوه القراءات الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتواتر » .

ويعني هذا أنّ علمَ القراءات يقومُ على بيان كيفيّةِ أداءِ الكلمة القرآنيّةِ على الوجه الذي تواتر سماعه ونقله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ أي : إنّ علم القراءات يبحث في بيان الصورة اللفظيّة للكلمة القرآنية كما نطق بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وأمّا التجويد : فهو علم يتعلق بكيفية تلاوة القرآن وإحكام القراءَة وإتقانها ؛ بإعطاء كلِّ حرفٍ حقَّه مخرجاً وصفةً ، وذلك بتصحيح الحروف وتقويمها وإخراجها من مخارجها ، وترتيب مراتبها ، وردّها إلى أصولها وإلحاقها بنظائرها .

وفي ضوء هذه التعريفات لعلم القراءات وعلم التجويد نخلص إلى

بيان الفرق بين القراءة والتجويد ، بأنّ :

القراءَة : لفظٌ ـ والتجويدَ : أداءٌ .

أقسام القراءات وأنواعها :

تُقسم القراءاتُ من حيثُ (صحةُ السَّندِ ، وموافقةُ العربيَّةِ ، ومطابقةُ الرسْمِ) إلى : متواترةٍ ، وصحيحةٍ ، ومستفيضةٍ ، وغيرِ مستفيضةٍ ، وآحاديّةٍ ، وشاذّةٍ .

القراءةُ المتواترةُ :

هي ـ كما يعرّفها الإمام ابن الجزري بقوله : « كلُّ قراءة وافقت العربيّةَ مطلقاً ، ووافقت أحدَ المصاحف العثمانية ـ أي : التي أرسلها عثمان بن عفان إلى الأمصار ـ وتواترَ نقلُها ؛ هذه القراءة المتواترة المقطوع بها » .

[منجد المقرئين : ١٥]

القراءةُ الصحيحةُ :

هي : « ما صحَّ سنده بنقل العدل الضابط عن الضابط ، كذا ، إلى منتهاه ، ووافقَ العربيَّة والرسمَ » .

وتُقسم إلى قسمين : مستفيضة وغير مستفيضة .

١ ـ **المستفيضــةُ** : وهي التي استفــاض نقلهــا وتلقتهــا الأمــة بالقبول . ويُمثل لها ابن الجزري : بمـا انفرد بـه بعض الرواة أو بعض الكتب المعتبرة ، وبمراتب القراءة في الْمَدِّ .

ويُلحـق هـذا القسم بـالقراءة المتـواترة ، وإن لم يبلـغ مبلغهــا ، وذلك لاستفاضته واقترانه بما يُفيد العلم بـاتصـالـه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو الأصل والأساس في اعتبار القراءة قرآناً .

٢ ـ **غيرُ المستفيضةِ** : وهي التي لم تستفضْ في نقلهـا ، ولم تتلقهـا الأمـة بـالقبـول . وهــذا القسمُ مـوضـعُ خـلافٍ بين الأئمــة المقرئين . ويُعرفها الإمام ابنُ الجزري بقوله : « ما وافق العربيّة ، وصحَّ سنـده ، وخالف الرسم » ، ويُمثّل له : « بما ورد بإسنـاد صحيح من زيـادة أو نقص أو إبدال كلمة بأخرى ونحو ذلك » .

[منجد المقرئين : ١٦]

القراءةُ الآحاديّةُ :

وهي القراءة الجـامعـة للأركان الثلاثـة ، ولم يبلغ نقلُهـا مستـوىً تُفيد معه القطع باتّصالها بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

القراءةُ الشاذّةُ :

وهي المخـالفـة للرسم العثمـاني أو العربيّـة ، ولو كانت منقولـة عن

ثقة ، مع أنّ هذا بعيد بل لا يكاد يوجد .

[القراءات الشاذّة : للقاضي ٧]

وسُمّيت هـذه القراءة : شـاذةً ؛ لكونهـا شـذّت عن رسم المصحف المجمع عليه ، وإن كان إسنـادهـا صحيحـاً ، فلا تجوزُ القراءةُ بهـا لا في الصلاة ولا في غيرها .

[منجد المقرئين : ١٦ ـ ١٧]

هـذا هو مـوجـزُ أقسـام القراءاتِ ، فمن أرادَ الاستزادةَ والتفصيـلَ فليرجـعْ إلى المصـادرِ المشـارِ إليهـا في علم القراءات في ثبت المصـادر والمراجع في آخر الكتاب .

البحث الثاني

مراحل نشأة القراءات

لقد مرّت القراءاتُ القرآنيّة بأدوارٍ مختلفةٍ ؛ نشأتْ متداخلةً بعضها في بعض ، حتى استقرتْ علماً من علوم القرآن الكريم ، أصبحتْ في ظلالِهِ مجالاً من مجالاتِ الاجتهادِ والاستنباطِ وتوجيهِ الدّلالات ، وبيان الوجوهِ التفسيريّةِ والمقاصدِ التأويليّةِ ، كما أصبحت مجالاً رحباً للدّراسات النحويّةِ ، واللغويّة بشكل عام ، باعتبارها أصح النصوص العربية نقلاً عن أفصح العرب لساناً ولهجةً رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي بلّغ مانُزّل إليه من كلام الله تبارك وتعالى .

ولقد مرّت نشأة القراءات القرآنية بأدوار متلاحقة متلازمة متناسقة ، شغلت الأمة العربية ابتداءً ، ثم الأمة الإسلامية ـ على اختلافِ شعوبِها وتعدّدِ لغاتِهم ـ انتهاءً ؛ فكانت تملأ الحياةَ علوماً ومعارفَ وثقافاتٍ ربّانيَّةً من حيثُ التشريعُ والتوحيدُ والآدابُ

والأخلاقَ ؛ حتى ربطتِ الأُمّةَ الإسلامية بأقوى حركةٍ فكريّـةٍ علميّـةٍ ثقافيّةٍ تشريعيّةٍ عرفتها الإنسانيّةُ قاطبةً .

وكانتْ نشـأةُ القراءاتِ ابتـداءً من نزولِ أوّل سـورةٍ من القرآن في غار حراء ، وانتهاءً إلى تأصيلها ، علمـاً ذا قواعـدَ وأصولٍ ؛ ذاتَ أدوارٍ تاريخيّة متلاحقة ، نُشير إلى مراحلهـا في هـذا البحث بـإيجـاز وعـدم إطناب ؛ لأنّ تفصيلها بإسهاب يعوزهُ الأجزاء والمجلدات .

مراحل نشأة القراءات :

المرحلةُ الأولى :

بدءُ الْوَحي ، وذلـك حينمـا تلقى رسول الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم أولَ ما نزل بـه جبريل من القرآن العظيم ، وهو قـائم على حِرَاء ، فعلّمه خمسَ آيـات من سورة اقرأ : ﴿ اقْرَأْ بِـاسْمِ رَبِّـكَ الَّـذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّـذِي عَلَّمَ بِـالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

وكانت هذه المرحلةُ بـدايـةَ النبوّة المحمـديّـة . ولعظيم شـأن بـدء الوحي ذهب الإمام البخـاري في صحيحـه إلى افتتـاحـه بهـذا العنوان المبارك الكريم ، لأنّه بابُ القرآن ومفتاح الإسلام .

انظر حديث بدء الوحي في صحيح البخاري (ج ١ - باب - ١ - الحديث ٣) ؛ فهو أصلٌ من أصولِ العقيدةِ والإيمان .

المرحلةُ الثانيةُ :

وتتمثّلُ في انتقال تعلّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم القرآنَ الكريم من جبريل وحفظه إيّاه بعد إقراء جبريل عليه السلام ؛ إلى تعليمه عليه الصلاة والسلام وإقرائه للمسلمين . وقراءتهِ لمن يدعوهم إلى الإسلام ، قال الله تعالى : ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

وكانت طريقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تعليمه أصحابَه للقرآن على هذا الحال الذي يصفه عثمان وابن مسعود وأُبَيّ : « أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يُقرِئُهم العشرَ - أي : من القرآن - فلا يجاوزونها إلى عشرٍ أخرَى حتى يتعلّموا ما فيها من العمل ، فَيَتَعلّموا القرآنَ والعملَ جميعاً » . وكذا فعلَ الصحابةُ في تعليمهم القرآن لبعضِهمُ البعض في حياته عليه الصلاة والسلام وبعدَ وفاته للتابعين .

[انظر : تفسير القرطبي ١/٣٩ - ٤١]

المرحلةُ الثالثةُ :

وتمثلتْ في تعليم الصحابةِ لبعضهم البعض ، ولمن دخل في الإسلام حديثاً . قال البراءُ : « أوّلُ مَن قدمَ علينا ـ المدينة ـ من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم : مُصعبُ بنُ عُمير ، وابنُ أم مكتوم ، فجعلا يُقرئانِنا القرآنَ ، ثم جاء عمّارٌ وبلال . ولمّا فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكّةَ ترك معاذَ بنَ جبل للتعليم ، وكان الرجل إذا هاجر إلى المدينة دفعَهُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى رجلٍ مِنَ الحفظة لِيُعلّمَه القرآن » .

[تاريخ القرآن للزنجاني : ٣٥] .

وجاء في حديث إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن » .
[السيرة لابن هشام : ٣٦٦/١]

المرحلة الرابعة :

وتتمثل هذه المرحلة بتفريغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجماعة من أصحابه لحفظ القرآن ومدارسته فيما بينهم ، ليكونوا مهيئين لتعليم الداخلين في الإسلام قراءة القرآن ؛ روى الواقدي : « كان من الأنصار سبعون رجلاً شَبَبَةً يُسمّون (الْقُرّاء) ، كانوا إذا أمسوا أتَوْا ناحيةَ المدينة فتدارسوا وصلّوا » . [المغازي للواقدي ٣٤٧/٢]

وهم الذين استُشهدُوا في غزوة (بئر معونة) التي وقعت في شهر صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُرشد الناسَ إلى أقرأ أصحابه فيقول : « استقرِئُوا القرآنَ من أربعة : عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حُذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأُبَيّ بن كعب » .
[البخاري ـ فضائل الصحابة : ٢٦ ـ ٢٧]

وقال في حق ابن مسعود : « مَن سرَّه أن يقرأ القرآنَ رَطباً كما أنزل فليقرأْهُ على قراءة ابن أمّ عبد) ، يعني عبد الله بن مسعود .
[مقدمتان في علوم القرآن : ٣٦]

المرحلة الخامسة :

وهي تتمثل في تخصص جماعة من الصحابة في حفظ القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم : أُبَيّ بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو الدرداء ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو موسى الأشعري ، وزيد بن ثابت . وعليهم مدار أسانيد الأئمة في القراءات العشرة المتواترة .

[معرفة القراء للذهبي : ٣٩/١]

والـذين كانوا من القرّاء وأتمـوا حفظهم بعـد وفـاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثيرون ، منهم : سالم مولى أبي حـذيفـة ، وأبو بكر ، وعمر ، وحـذيفـة ، وطلحـة ، وسعـد ، وعمرو بن العـاص ، وأبو هريرة ، ومعاوية ، وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العـاص ، وابن عباس ، وعبد الله بن السائب ، وابن الزبير ، وحفصة وعـائشـة وأم سلمـة أمهـات المـؤمنين . وهم من المهـاجرين . ومن الأنصـار : مجمع بن حـارثـة ، وأبـو زيـد ـ واسمـه قيس بن السكن ـ وأنس بن مالك .

[النشر في القراءات العشر : ٦/١]

فكان هـؤلاء وغيرهم يُقرئـون التـابعين القرآن الكريم ، ممن يرد إليهم من الأمصار .

المرحلة السادسة :

وهـذه المرحلـة تتمثّـل في تعيين أمير المـؤمنين عثمان بن عفـان رضي الله تعالى عنه لكل مصر من أمصار المسلمين مقرئاً خاصاً يصحب المصحف المرسل من قبل عثمان إلى الأمصار ، بعد استنسـاخ المصـاحف على المصحف الإمام الذي جمعه في المدينة .

والأمصار التي أرسل إليها المصاحف هي :

١ ـ مكة المكرّمة ، وأرسل إليها : عبد الله بن السائب المخزومي .

٢ ـ الكوفة ، وأرسل إليها : أبا عبد الرحمن السُّلمي ، ومكث يعلم فيها القرآن الكريم سبعين سنة .

٣ ـ البصرة ، وأرسل إليها : عامر بن عبد قيس .

٤ ـ الشام ، وأرسل إليها : المغيرة بن أبي شهاب المخزومي .

٥ ـ المدينة ، واستبقى فيها زيد بن ثابت لِيُقرئ فيها الناس .

وقد توخى عثمان رضي الله عنه في اختيار هؤلاء الموفَدين أن يكون كل قارئ موافقاً في قراءته قراءة أهل تلك الأمصار في الأكثر الأغلب . وذلك لأن فيها مَنِ استقرَّ فيها من الصحابة قديماً ، فأخذ أهلُها القرآنَ عنهم .

[مناهل العرفان : ٤٠٦/١]

المرحلة السابعة :

وهي تتمثل في تفرّغ جماعات من التابعين في كل مصر من الأمصار المعهود إليها بالمصحف الإمام ، وهم :

المدينة : كان فيها أبو جعفر يزيد بن القعقاع (ت ١٣٠ هـ) ، ثم شيبة بن نصاح (ت ١٣٠ هـ) ، ثم نافع بن أبي نُعيم ، (ت ١٦٩ هـ) .

مكّة : كان فيها عبد الله بن كثير (ت ١٢٠ هـ) ، وحُميد بن قيس الأعرج (ت ١٣٠ هـ) ، ومحمد بن محيصن ، (ت ١٢٣ هـ) .

الكوفة : كان فيها يحي بن وثاب (ت ١٠٣ هـ) ، وعاصم بن أبي النجود (ت ١٢٩ هـ) ، وسليمان الأعمش (ت ١٤٨ هـ) ، ثم حمزة (ت ١٥٦ هـ) ، ثم الكسائي (ت ١٨٩ هـ) .

البصرة : كان فيها عبد الله بن إسحاق (ت ١٢٩ هـ) ، وعيسى بن عمر (ت ١٤٩ هـ) ، وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) ، ثم عاصم الجَحْدري (ت ١٢٨ هـ) ، ثم يعقوب الحضرمي ، (ت ٢٠٥ هـ) .

الشام : كان فيها عبد بن عامر (ت ١١٨ هـ) ، وعطية بن قيس الكلابي (ت ١٢١ هـ) ، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر ، ثم يحي بن الحارث الذماري (ت ١٤٥ هـ) ، ثم شرحبيل بن يزيد الحضرمي ، (ت ٢٠٣ هـ) .

وهؤلاء المتخصصين في القراءة هم الذين وفّروا المادّة ويسّروا السبيل لوضع علم القراءات وتدوينها .

وقد بدأت هذه المرحلة في أواخر القرن الأول الهجري ، وأوائل القرن الثاني الهجري .

المرحلة الثامنة :

وهي تتمثل في بدء التأليف في القراءة وتدوينها .

فكان أول من صنّف فيهـا أبي عُبيـد بن القـاسم بن سـلام (ت ٢٢٤ هـ) ، وأبـو حـاتم السجستـاني (ت ٢٥٥ هـ) ، ثم تتـابع الأئمة القرّاء يضعون المصنفات لقراءاتهم التي تلقوها . ويذكر الدكتور عبـد الهـادي الفضلي في كتـابـه : (القراءات القرآنيـة : تـاريخ وتعريف) أن بـدء التصنيف كان سنـة ٩٠ هـ على يـدي يحي بن يعمر ، ثم تتابع التأليف بعده . وقد ذكرهم في كتابه هذا فبلغوا أربعاً وأربعين إماماً مصنفاً في القراءات ، وذلك حتى عام ٣٢٤ هـ .

[القراءات : تاريخ وتعريف للدكتور الفضلي : ٢٧ ـ ٣٢]

المرحلة التاسعة :

وتتمثـلُ هـذه المرحلـةُ في تسبيـع السبعـة ، والاقتصـار على جمع قراءاتهم في مـؤلَّفٍ خـاص ، وكان ذلـك من قبـل أبي بكر أحمـد بن موسى بن العباس بن مجاهـد التيمي البغـدادي المتوفى سنـة ٣٢٤ هـ في كتابه الموسوم بـ (قراءات السبعة) .

والسبعـة هم : أبو عمرو من أهل البصرة ، وحمزة وعـاصم من أهل الكوفة ، والكسائي من أهل العراق ، وابن كثير من أهل مكة ، وابن عامر من أهل الشام ، ونافع من أهل المدينة .

وكلُّهم مِمّن اشتهرت إمامته وطال عمره في الإقراء ، وارتحال الناس إليه من البلدان .

[الإبانة في معاني القراءات : ٤٧ ـ ٤٨]

وكان الداعي إلى الاقتصار في جمع القراءات على السبعة هؤلاء ، هو :

١ ـ أنّهم تجرّدوا لقراءة القرآن الكريم ، واشتدّت بذلك عنايتهم ، مع كثرة علمهم وعلوّ منزلتهم ، ومَن كان مِن أقرانهم من العلماء لم يتجرّدوا لذلك تجرّدهم ، وكان الغالب على أولئك الفقه أو الحديث أو غير ذلك من العلوم ، ولهذا لم يشتهروا اشتهارهم في مجال القراءة .

٢ ـ أنّ قراءَتهم وُجِدتْ مسندةً لفظاً وسماعاً حرفاً حرفاً ، من أول القرآن الكريم إلى آخره ، مع ما عُرف من فضائلهم وكثرة علمهم بوجوه القراءات .

[مجمع البيان للطبرسي : ٢٥/١]

ثم تتابع التأليف في تسبيع القراءات السبع ، وتشذيذ القراءات الشواذ ، أمثال ابن مجاهد ، ومعاصريه أمثال أبي بكر محمد بن السري (ت ٣١٦ هـ) ومحمد بن الحسن الأنصاري (ت ٣٥١ هـ) الذي ألف كتاب (السبعة الكبير) . ثم جاء بعده كثير ، إلى أن ظهر الإمام

أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ) بكتابه (التيسير في القراءات السبع) الذي يعدّه ابن الجزري من أصح كتب القراءات ، وأوضح ماأُلِّف عن السبعة من الروايات . وكتاب (جامع البيان في القراءات السبع) الذي اشتمل على نيف وخمس مئة رواية وطريق عن الأئمة السبعة . والذي قال فيه ابن الجزري : إنه كتاب جليل في هذا العلم لم يُؤلّف مثله .

[النشر في القراءات العشر : ٦١/١]

ثم جاء الإمام الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) فوضع منظومته المشهورة : (الشاطبيّة) التي هي نظم لكتاب (التيسير) للدّاني ، وعدتها ألف ومئة وثلاثة وسبعون بيتاً .

وقد اعتنى الأئمة والقرّاء من بعده بهذه المنظومة (الشاطبية) فوضعوا لها شروحاً ما بين مطوّلة ومختصرة بلغت ستةً وثلاثين شرحاً .

ثم جاء الإمام ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) فوضع مؤلفاته القيمة في علم القراءات ، وأشهرها (النشر في القراءات العشر) الذي ضمّنه القراءات السبع وأضاف إليها القراءات الثلاثة الأخرى المتواترة ، وهي قراءة أبي جعفر : يزيد بن القعقاع المدني (ت ١٣٢ هـ) ، ويعقوب بن إسحاق أبو محمد الحضرمي (ت ٢٠٥ هـ) ، وخلف بن هشام البزار أبو محمد (ت ٢٢٩ هـ) ، وهي التي أثبت تواترها الإمام ابن الجزري وتمّم بها العشرة في كتابه المشهور (النشر) .

سبب اشتهار القراءات بأسماء رواتها :

قال الإمام مكي بن أبي طالب القيسي :

« فإن سأل سائل : ما العلّة التي من أجلها اشتهر هؤلاء السبعة بالقراءة دون مَن هو فوقهم ؟ فنُسِبت إليهم السبعة الأحرف مجازاً ، وصاروا في وقتنا أشدّ من غيرهم مِمّن هو أعلى درجة منهم وأجلّ قدراً » ؟

قال : « فالجواب : أنّ الرواة عن الأئمة من القرّاء كانوا في العصر الثاني والثالث كثيراً في العدد ، كثيراً في الاختلاف ـ أي : الاختلاف في وجوه القراءات وكثرة طرقها وتعدّد رواياتها ـ فأراد الناس في العصر الرابع أن يقتصروا من القراءات التي توافق المصحف على ما يسهل حفظه ، وتنضبط القراءة به ، فنظروا إلى إمامٍ مشهور بالثقة والأمانة في النقل وحُسن الدِّين ، وكمال العلم . واشتهر أمره بالثقة ، وأجمع أهل مصره على عدالته فيما نَقَل ، وثقتِهِ فيما قَرَأ وروى ، وعلمِهِ بما يقرأ ، ولم تخرج قراءتُهُ عن خط مصحفهم المنسوب إليهم ـ أي : مصحف أهل مكة ، مصحف أهل الشام ، وهكذا ـ فأفردوا من كل مصرٍ وجَّهَ إليه عثمان ـ رضي الله عنه ـ مصحفاً إماماً ، هذه صفتُهُ وقراءتُهُ على مصحف ذلك المصر » .

وقال : « فكان أبو عمرو من أهل البصرة ، وحمزة وعاصم من

أهل الكوفة ، والكسائي من أهل العراق ، وابن كثير من أهل مكة ، وابن عامر من أهل الشام ، ونافع من أهل المدينة . وكلُّهم ممّن اشتهرت إمامتُهُ ، وطالَ عمرُهُ في الإقراء ، وارْتِحالِ الناس إليه من البلدان ، ولم يترك الناس مع هذا نقل ما كان عليه أئمة هؤلاء من الاختلاف ، ولا القراءة بذلك » .

ثم قال : « وأول من اقتصر على هؤلاء السبعة : أبو بكر بن مجاهد ، قبل سنة ثلاث مئة أو نحوها ، وتابعه على ذلك مَن أتى بعده إلى الآن ـ أي : إلى وقته ـ ولم تُترك القراءة برواية غيرهم واختيار مَن أتَى بعدهم إلى الآن » .
[الإبانة عن معاني القراءات : ٦٣ ـ ٦٥]

ثم جاء الإمام ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) فضمّ إلى هؤلاء السبعة الثلاثة الباقين الذين تواترت قراءاتُهم ، وتوفرت شروطهم ، وهم : الإمام أبو جعفر ، والإمام يعقوب ، والإمام خلف .

تدوين القراءات السبع :

قال الإمام أبو الحسن علي بن محمد في كتابه : (جمال القرّاء) ص ١١١ : « لمّا كان العصر الرابع سنة ثلاث مئة أو ما قاربها ؛ كان أبو بكر بن مجاهد رحمه الله تعالى ، قد انتهت إليه الرياسة في علم القراءة ، وقد تقدم في ذلك على أهل ذلك العصر ؛ اختار من

القراءات ماوافق خط المصحف ، ومِنَ القرّاء بها مَنِ اشتهرت قراءتُه وفاقت معرفتُه ، وقد تقدّمَ أهلَ زمانه في الدِّين والأمانة والمعرفة والصيانة ، واختارَهُ أهلُ عصره في هذا الشأن ، وأطبقوا على قراءته ، وقُصِدَ من سائر الأقطار ، وطالت مُمَارستُهُ للقراءة والإقراء ، وخُصَّ في ذلك بطول البقاء ، ورأى أن يكونوا سبعةً تأسياً بعِدّة المصاحف الأئمة - التي نُسِخَتْ في عهد عثمان - فاختار هؤلاء القرّاءَ السبعة أئمّةَ الأمصار ، فكان أبو بكر بن مجاهد أول من اقتصر على هؤلاء السبعة ، وصنّف كتابه في قراءاتهم ، واتّبعه الناس على ذلك » .

ثم تعاقب مِن بعدِهِ المدوِّنُون والمصنِّفون للقراءات السبع ، إلى أن جاء ابن الجزري فألّف كتابَه الجامع : (النشر في القراءات العشر) وضمّ إلى السبع الثلاثة التي أثبت تواترَها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كما تقدم ذكر ذلك ، فجزاه الله تعالى عن المسلمين خير الجزاء .

البحث الثالث

مصادر القراءات

لقد تبيّن فيما تقدّم في (بحث نشأة القراءات) أنّ القراءة للقرآن الكريم على تعدّد وجوهها كانت نقلاً عن طريق المشافهة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أسماع أصحابه بالإضافة إلى النقل بالكتابة ، ثم تناقلها الصحابة كذلك فيما بينهم ؛ ما بين مُسْتكمل ومُتّمم ، ثم جاء عهد التابعين فتلقوا القرآن الكريم بذات الطريقة ، ثم تلاهم أجيال المسلمين ، جيلاً جيلاً ، يَتحمَّلُون القراءة ويُحمِّلُونها . مشافهةً وكتابةً ، مع تعدّد وجوه القراءات ، ووحدة الرسم في المصاحف .

وهذا يعني وحدة الأصل لمصادر القراءات التي تناقلها الأئمة القرّاء في كل عهد ، وفي كل جيل حتى وقتنا هذا . من غير تبديل ولا تعديل على منهج تحمّل الرواية وأدائها ، من لدن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحتى الآن .

مصادر رواية القراءات :

قال الإمـام ابن الجزري في : [النشر في القراءات العشر : ٦/١ - ١٠] « إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، وهـذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة ، ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : أنّ النبيّ صلى الله عليـه وآلـه وسلم قـال : « إنّ ربّي قـال لي : قُمْ في قريش فـأنـذرْهم ، فقلتُ لـه : ربِّ إذن يثلغـوا رأسي حتى يـدعـوه خبزةً ، فقـال : مُبتليـكَ ومُبتلي بِـكَ ، ومُنزّلٌ عليـكَ كتـابـاً لا يغسله الماء ، تقرؤه نـائمـاً ويقظـان » الحـديث .. فـأخبر تعـالى أنّ القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تُغسل بالماء ، بل يقرؤوه في كل حـال ، كما جـاء في صفـة أمتـه : « أنـاجيلهم في صـدورهم » ، وذلـك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه لا في الكتب ولا يقرؤونـه كلَّـه إلاّ نظراً ، لا عن ظهر قلب . ولمّا خصَّ الله تعالى بحفظـه مَن شـاءَ مِن أهله أقام له أئمةَ ثقاتٍ تجرّدوا لتصحيحه ، وبـذلوا أنفسهم في إتقـانـه ، وتلقوه من النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم حرفاً حرفـاً ، لم يُهْمِلُوا منه حركةً ولا سُكوناً ولا إثباتاً ولا حـذفـاً ، ولا دخل عليهم في شيء منـه شـكٌّ ولا وهمٌ ، وكان منهم مَن حفظـه كلَّـه ، ومنهم مَن حفـظ أكثره ، ومنهم مَن حفظ بعضَه ، كلٌّ ذلك في زمن النبي صلى الله عليـه وآله وسلم ، وقد ذكر الإمام أبو عُبيد القاسمُ بنُ سلام في أول كتابـه في القراءات مَن نقـلَ عنهم شيء من وجـوه القراءة مِنَ الصحـابـة وغيرهم

ـ أي من التابعين ـ فذكر من الصحابة أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلياً ، وطلحة ، وسعداً ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالماً ، وأبا هريرة ، وابنَ عمر ، وابن عباس ، وعمروَ بن العاص ، وابنَه عبدَ الله ، ومعاوية ، وابن الزبير ، وعبد الله بن السائب ، وعائشةَ ، وحفصةَ ، وأمَّ سَلمة ، وهؤلاء كلهم من المهاجرين . وذَكَرَ من الأنصار : أُبَيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبا الدرداء ، وزيد بن ثابت ، وأبا زيد ، ومجمع بن جارية ، وأنس بن مالك ، رضي الله عنهم أجمعين » .

قال : « ولمّا توفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقام بالأمر بعده أحقُّ الناس به أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقاتل أصحابُه رضوان الله عليهم أهلَ الرّدة وأصحابَ مسيلمة ، وقُتل من الصحابة نحو الخمس مئة ـ من بينهم سبعون قارئاً ـ أُشيرَ على أبي بكر بجمع القرآن الكريم في مصحف واحد خشية أن يذهب بذهاب الصحابة ـ الذين هم أوعية القرآن ـ فجمعه في صُحُفٍ كانت عند أبي بكر رضي الله عنه حتى توفي ، ثم عند عمر رضي الله عنه حتى توفي ، ثم عند حفصة رضي الله عنها » .

ولما كان في نحو ثلاثين من الهجرة في خلافة عثمان رضي الله عنه حضر حذيفة بن اليمان فتح أرمينية وآذربيجان فرأى الناس يختلفون

في القرآن ـ على ماسبق بيانه ـ فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها ، فأرسلتها إليه ، فأمر زيدَ بن ثابت وعبدَ الله بن الزبير وسعيدَ بن العاص ، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام : أن ينسخوها في المصاحف ، وقال : إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء فاكتبوه بلسان قريش ، فإنّما نزل بلسانهم ، فكتب منها عِدّة مصاحف ، فوجه بمصحف إلى البصرة ومصحف إلى الكوفة ، ومصحف إلى الشام ، وترك مصحفاً بالمدينة ، وأمسك مصحفاً لنفسه . ووجه بمصحف إلى مكة ، وبمصحف إلى اليمن ، وبمصحف إلى البحرين ، وأجمعت الأمة المعصومة من الخطأ على ماتضمنته هذه المصاحف وترك ماخالفها . وجُرّدت هذه المصاحف جميعها من النقط والشكل ليحتملها ماصحّ نقله وثبت تلاوته عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرّد الخط ، وكان مِن جملة الأحرف التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : « أُنزل القرآن على سبعة أحرف » ، فكتبت المصاحف على اللفظ الذي استُقِرَّ عليه في العرضة الأخيرة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وقرأ كل أهل مِصْرٍ بما في مصاحفهم وتلقوا مافيه عن الصحابة الذين تلقوه مِن فِيْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قاموا بذلك مقام الصحابة الذين تلقوه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم » .

قال : « ثم إنّ القرّاء كثروا وتفرّقوا في البلاد وانتشروا ، وخلفهم

أُممٌ بعد أمم ، عُرفت طبقاتهم ، واختلفت صفـاتهم ، فكان منهم المتقن للتلاوة المشهـورة بـالروايـة والـدرايـة ، ومنهم مـادُون ذلـك . فقـام جهابذةُ علماء الأمة وصنـاديـدُ الأئمـة ، فبـالغوا في الاجتهـاد ، وبيّنوا الحقَّ المراد ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعَزَوْا الوجُوهَ والروايـات ، وميّزوا بين المشهور والشـاذ ، والصحيح والفـاذّ ؛ بـأصـول أصلـوهـا ، وأركان فصّلـوهـا ، وهـا نحن نُشير إليهـا ونعـوّل كما عـوّلـوا عليهـا ، فنقول :

« كل قراءة وافقت العربية ولو بوجهٍ ، ووافقت أحـدَ المصـاحف العثمانية ، وصحّ سندها ؛ فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها ولا يحلُّ إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها ؛ سواء كانت عن الأئمـة السبعـة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين ، ومتى اختلّ ركنٌ من هـذه الأركان الثلاثـة أُطلِقَ عليها ضعيفة أو شاذة أو بـاطلـة سواء كانت عن السبعـة أم عمّن هو أكبر منهم » .

أصول الأخذ عن المصادر :

وتتمثل صُوَرُ الأصول في الأخـذ عن المصـادر مـا جـاء عن السلف والأئمة من قواعد الأخذ وأصول التلقي للقراءات القرآنية :

١ ـ مـا جـاء في حـديث عمر بن الخطـاب وزيـد بن ثـابت من

الصحابة ، وعن ابن المنكدر وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وعامر والشعبي ؛ من التابعين : أنّهم قالوا : « القراءة سُنّةٌ يأخذها الآخَرُ عن الأول ، فاقرؤُوا كما عُلِّمتُمُوه » .

[النشر في القراءات العشر : ١/١٧]

٢ ـ يقول إسماعيل بن إبراهيم الهروي : « السُّنَّةُ أنْ تُؤخذَ القراءة إذا اتصلت روايتُها نقلاً وقراءةً ولفظاً ، ولم يُوجد طعنٌ على أحدٍ من رواتها » .

[البرهان في علوم القرآن : ١/٣٣٠]

٣ ـ يقول أبو عمرو عثمانُ بنُ الصلاح : « يشترط أن يكون المقروء به قد تواتر نقلُه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرآناً ، أو استفاضَ نقلُه كذلك » .

[النشر : ١/٧٨]

٤ ـ يقول أبو عمرو الداني : « وأئمة القرّاء لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الأفشَى في اللغة والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل ، والرواية إذا ثبتت عندهم لا يردّها قياسُ عربيّة ولا فُشوّ لغةٍ ، لأنّ القراءة سُنّةٌ متّبعةٌ يلزم قبولُها والمصيرُ إليها » .

[مناهل العرفان : ١/٤١٥ ، نقلاً عن جامع البيان]

٥ ـ يقولُ ابنُ مسعود : « اتّبِعُوا ولا تبتدعوا ، فقد كُفيتُم » ، وعن عليّ قال : « إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمرُكم أن تقرؤوا كما عُلِّمْتُم » .

[النشر : ١٧/١]

٦ ـ يقول النوري الصفاقِسي : « القرآن سُنّةٌ متّبعة ، ونقلٌ محضٌ ، فلا بدَّ من إثباتها وتواترها ، ولا طريق إلى ذلك إلاّ بهذا الفن » ، أي : علم الرواية والقراءة .

[غيث النفع في القراءات السبع : ٢١]

المبحث الرابع

أسباب اختلاف القراءات

أوجه الاختلاف :

لقد تمَّ بالاستقراء حصر أوجه الاختلاف في القراءات في المجالات التالية :

١ ـ الاختلاف في حركات الكلمة بلا تغيّر في معنى الكلمة وصورتها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾ [الشعراء : ١٣] حيث قُرِئ برفع ﴿ يَضِيقُ ﴾ ونصبها . ونحو قوله تعالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود : ٧٨] حيث قُرِئ برفع ﴿ أَطْهَرُ ﴾ ونصبها .

٢ ـ الاختلاف في الحركات مع تغيير المعنى وبقاء الصورة : نحو قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران : ٣٧] فقد قُرِئ بتخفيف الفعل ﴿ كَفَلَهَا ﴾ ورفع ﴿ زكريا ﴾ ، وقُرِئ بتشديد الفعل ونصب زكريا : ﴿ وكَفَّلَها زكريا ﴾ .

٣ ـ الاختلاف في حروف الكلمة مع تغيّر معنى الكلمة وبقاء

صورتها ، نحو قوله تعالى : ﴿ انْظُرْ إلى العِظَامِ كيفَ نُنْشِزُهَا ﴾ [البقرة : ٢٥٩] حيثُ قرِئ ﴿ نُنْشِزُها ﴾ بالزاي المعجمة ، وقُرِئ ﴿ نَنْشُرُها ﴾ بالراء المهملة .

٤ ـ الاختلاف في الحروف مع تغيّر الصورة وبقاء المعنى : نحو قوله تعالى : ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ [القارعة : ٥] حيث قُرِئ : (كالصوف المنفوش) ، ونحو قوله تعالى : ﴿ وزَادَكُمْ في الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ [الأعراف : ٦٩] حيث قُرِئ بالسين المهملة ، و ﴿ بَصْطَةً ﴾ بالصاد المهملة .

٥ ـ الاختلاف في الحروف مع تغيَر المعنى وتغيَر الصورة ، نحو قوله تعالى : ﴿ وطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ [الواقعة : ٢٩] حيث قُرِئ : ﴿ وَطَلْحٍ ﴾ بالحاء المهملة ، وقُرِئ : ﴿ وَطَلْعٍ ﴾ بالعين المهملة .

٦ ـ الاختلاف في التقديم والتأخير ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ [قٓ : ١٩] حيث قُرِئ : ﴿ وَجاءَتْ سَكْرَةُ الحقِّ بِالْمَوْتِ ﴾ . ونحو قوله تعالى : ﴿ فأَذَاقَها اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ [النحل : ١١٢] الذي قُرِئ أيضاً ﴿ فأَذَاقَها اللهُ لِبَاسَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ .

قال الإمام ابنُ قُتيبة : « وكلُّ هذه الحروف كلام الله تعالى نزل به الروح الأمين على رسوله عليه الصلاة والسلام ، وذلك أنّه كان

يُعـارِضُـه في كل شهر من شهور رمضـان بمـا اجتمع عنـده من القرآن ، فيُحدّثُ اللهُ إليه من ذلـك مـا يشـاء ، وينسخ مـا يشـاء ، ويُيَسّرُ على عباده مـا يشـاء ، فكان مِن تيسيره أن أمره بـأن يُقرئَ كلّ قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم » .

[تأويل مشكل القرآن : ٣٠]

أسباب الاختلاف[1] :

وسبب اختلاف القراءات السبع وغيرها :

أنّ الجهات التي وُجِّهَتْ إليها المصاحف كان بها مَن حمل منـه أهل تلك الجهة ، وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل .

وكان أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعاً من الصحابـة بشرط موافقة خط المصحف الإمام ، وتركوا ما يخـالف الخـط ، امتثـالاً لأمر عثمان الـذي وافقـه عليـه الصحـابـة لمّـا رأوا في ذلـك من الاحتيــاط للقرآن ، فمِن ثَمَّ نشـأ الاختلاف بين قرّاء الأمصـار مع كـونهم متمسكين بحرف واحد من السبعة .

[تاريخ القرآن : للكردي ٩٢ نقلاً عن فتح الباري]

---

(١) الاختلاف غير الخلاف ، لأن الخلاف : المخالفة . أمّـا الاختلاف : فهو التنوّع في الوجوه .

والصحابة بدورهم كانوا قد تلقوه سماعاً مِن فِيْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانوا ماتلقوه مُختلِفاً ؛ فمنهم مَن أخذ القرآن عنه بحرف واحد ، ومنهم مَن أخذه عنه بحرفين ، ومنهم مَن زاد ، ثم تفرّقوا في البلاد ، وهم على هذه الحال ، فاختلف بسبب ذلك أَخْذُ التابعين عنهم ، وأخْذُ تابِعي التابعين عن التابعين ؛ وهلمّ جرّاً ، حتى وصل الأمرُ على هذا النحو إلى الأئمة القرّاء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويعْنونَ بها وبنشرها .

[مناهل العرفان في علوم القرآن : ٤٠٦/١]

وإلى هذا الاختلاف أيضاً يُشير ابن مجاهد في كتابه (السبعة) مُعَلِّلاً إيّاه بقوله : « ورُويت الآثار بالاختلاف عن الصحابة والتابعين توسعة ورحمة للمسلمين » .

[السبعة لابن مجاهد : ٤٥]

وقال أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ) : « القرآن العربي فيه من جميع لغات العرب ـ أي : من لهجاتها ـ لأنّه أُنزل عليهم كافّة ، وأُبيح لهم أن يقرؤوه على لغاتهم المختلفة ، فاختلفت القراءات فيه لذلك » .

[إبراز المعاني من حرز الأماني : ٤٧٨]

سبب اختلاف الرسم في المصحف :

وقال الإمام أبو عمرو الدّاني : « إن سألَ سائلٌ عن السبب الموجب لاختلاف مرسوم هذه الحروف الزوائد في المصاحف ؟ قلتُ : السبب في ذلك أنّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لما جمع القرآن في المصاحف ، ونسخها على صورة واحدة وآثر في رسمها لغة قريش دون غيرها ، مِمّا لا يصح ولا يثبت نظراً للأمة واحتياطاً على أهل الملة ، وثبت عنده أنّ هذه الحروف من عند الله عزّ وجل كذلك مُنزّلة ، ومن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسموعة ، وعلم أنّ جمعها في مصحف واحد على تلك الحال غير مُتمكّنٍ إلا بإعادة الكلمة مرتين ، وفي رسم ذلك كذلك من التخليط والتغيير للمرسوم ، ما لا خفاء به ؛ ففرّقها في المصاحف لذلك ، فجاءت مثبتةً في بعضها ومحذوفة في بعضها لكي تحفظها الأُمّةُ كما نزلت من عند الله عزّ وجل ، وعلى ما سُمِعَتْ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » .

[المقنع للداني : ١١٤ ـ ١١٥]

حكم أخذ القراءة من المصحف :

وحكم أخذ القراءة من المصحف فحسب دون أخذها عن القرّاء ؛ لا يجوز ، قال الإمام الصفاقسي : « قال ابن الحاج في المدخل : لا يجوز لأحدٍ أن يقرأ بما في المصحف إلا بعد أن يتعلّم القراءة على

وجهها أو يتعلم مرسوم المصحف وما يُخالف منه القراءة ، فإن فعلَ غير ذلك فقد خالف ماأجمعت عليه الأُمة » .

وقال : « ولا يلزم موافقة التلاوة للرسم ؛ لأنّ الرسم سُنّة متّبعة ، وقد توافق التلاوة وقد لاتوافقه ، انظر كيف كتبوا : ﴿ وَجِاْئَ ﴾ بالألف قبل الياء لـ ﴿ جِيْئَ ﴾ [الزمر : ٦٩] وكذا : ﴿ لاَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ [النمل : ٢١] و : ﴿ لاَأَوْضَعُوا ﴾ [التوبة : ٤٧] بألف بعد (لا) ، ومثل هذا كثير ، والقراءة بخلاف الرسم » .

[غيث النفع في القراءات السبع : ٢١/١]

البحث الخامس

القراءات الشاذة وأصحابها

لا يُوجد اليوم قراءة متواترة وراء العشرة . وإنّ التواتر لم يتحقق إلا في القراءات العشر .

فكلٌّ قراءة وراء العشرة لا يُحكم بقرآنيّتها ، بل هي قراءة شاذّة ، لا تجوز القراءة بها لا في الصلاة ولا خارجها .

قال الإمام النووي : « لا تجوز القراءة في الصلاة ولا في غيرها بالقراءات الشاذّة ، وليست قرآناً ، لأنّ القرآن لا يثبت إلاّ بالتواتر . أمّا الشاذّة فليست متواترة ، فلو خالف وقرأ بالشاذ أُنكر عليه سواء قرأ بها في الصلاة أو غيرها » .

وقال الإمام ابن الصلاح : « ممنوعٌ من القراءة بما زاد على العشرة منعَ تحريم لا منع كراهة ، في الصلاة وخارجها » .
[القراءات الشاذّة للقاضي : ٦ ـ ٧]

القراءات الشاذّة :

قال الإمام ابن الجزري : « .. ما وافق العربية وصحّ سنده وخالف الرسم من زيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى ونحو ذلك مِمّا جاء عن أبي الدرداء وعمر وابن مسعود ، وغيرهم ، فهذه القراءة تُسمَّى اليوم شاذّة ؛ لكونها شذّت عن رسم المصحف المجمع عليه ، وإن كان إسنادُها صحيحاً ، فلا تجوز القراءة بها لا في الصلاة ولا في غيرها . قال الإمام أبو عمر بن عبد البر في كتابه التمهيد : وقد قال مالك : إنّ مَن قرأ في صلاته بقراءة ابن مسعود أو غيره من الصحابة مِمّا يخالف المصحف ؛ لم يُصَلِّ ـ أي : لم تصح صلاتُه ـ وعلماءُ المسلمين مجمعون على ذلك . قلتُ (القائل : ابن الجزري) : قال أصحابنا الشافعية وغيرهم : لو قرأ بالشاذّ في الصلاة بطلت صلاتُه إن كان عالماً ، وإن كان جاهلاً لم تبطل صلاته ، ولم تحسب له تلك القراءة . واتفق علماء بغداد على تأديب الإمام ابن شنبوذ واستتابتْهُ على قراءته وإقرائه بالشاذّ » .

وقال : « وأمّا ما وافق المعنى والرسم أو أحدهما من غير نقل ؛ فلا تُسمَّى شاذّة ، بل مكذوبة ، يكفر مُتعمّدها » .

[منجد المقرئين : ١٦ ـ ١٧]

سبب رواية الشواذّ :

قال الإمام ابن الجزري : « إنّما نقلها مَن نقلها من العلماء لفوائد فيها تتعلّق بعلم العربية لا للقراءة بها . هذا طريق مَنِ استقام سبيله » .

[منجد المقرئين : ١٨]

وإذْ قد علمتَ أنّ القراءة الشاذّة لا تجوز القراءة بها مطلقاً ؛ فإنّه يجوز تعلّمها وتعليمها ، وتدوينها في الكتب ، وبيان وجهها من حيث اللغة والإعراب والمعنى ، واستنباط الأحكام الشرعية منها على القول بصحة الاحتجاج بها ، والاستدلال بها على وجه من وجوه اللغة العربية ، وفتاوى العلماء قديماً وحديثاً مطبقة على ذلك ، والله تعالى أعلم .

[القراءات الشاذّة للقاضي : ٨]

أصحاب القراءات الشوّاذ :

القراءات الشواذّ : أربعٌ هي :

١ ـ قراءة ابن محيصن ، وابن محيصن هو : محمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي مولاهم ، المكي . مقرئ أهل مكة مع ابن كثير . ثقة ، روى له مسلم . قال ابن مجاهد : وكان مِمّن تجرّد للقراءة وقام بها في عصر ابن كثير ـ الذي هو من أحد الأئمة السبعة ـ كان لابن محيصن اختيار في

القراءة على مذهب العربية ، فخرج بـه عن الإجمـاع ، فرغب النـاس عن قراءته ، وأجمعوا على قراءة ابن كثير لاتّباعه . توفي ابن محيصن سنة ثلاث وعشرين بعد المئة بمكة .

٢ ـ قراءة يحي اليزيـدي ، أبـو محمـد يحي بن المبـارك بن المغيرة العدوي البصري المعروف باليزيدي ، إمـامٌ نحويٌّ مقرئ ، علاّمـة كبير نزل بغداد ، وعُرف باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور خال المهدي . قال الحافظ الذهبي : كان ثقة علاّمة فصيحاً ، مفوّهاً بارعاً في اللغـات والآداب ، له عـدّة تصـانيف . قـال ابن مجـاهـد : انتصب للروايـة ، وتجرّد لها ، ولم يشتغل بغيرها . توفي سنة اثنتين ومئتين .

٣ ـ قراءة الحسن البصري ، أبو سعيد الحسن بن يسـار البصري ، إمامُ أهل زمانه علماً وعملاً ، وفصاحـةً ونبلاً ، وزهـداً وتقشفـاً . قـال فيه الإمام الشـافعي : لوأشـاء أقول إنّ القرآن نزل بلغـة الحسن لقلت لفصاحته . ومناقبه في الزهد والورع أكثر من أن تُحصر . ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، وتوفي سنة عشر ومئة .

٤ ـ قراءة الأعمش ، أبو محمـد سليمـان بن مهران الأعمش الأسـدي الكوفي مولاهم ؛ الإمام الجليل ، كان حافظاً واسعَ العلم بالقرآن ، وَرِعاً ناسكاً ، مجانباً للسلاطين . وكان يُسمَّى بالمصحف لشدّة إتقانه وضبطه وتحريه . وُلِدَ سنة ستين ومات سنة ثمان وأربعين ومئة .

[القراءات الشاذة للقاضي : ٩ ـ ١٥]

المرحلة الخامسة

ضبط الحركات للآيات وتنقيط المصاحف العثمانية

للتنقيط معانٍ : قال في لسان العرب في مادة (نقط) : « النقطة واحدة النُّقَط ، والنِّقاط : جمع نقطة . ونقطَ الحرفَ يَنْقُطه نقطاً : أَعْجَمه » . هذا من حيث اللغة .

أما من حيث الاصطلاح فلها معنيان متقاربان :

الأول : نَقْط الإعجام ، وهو نقْط الحروف في سِمَتها ، للتفريق بين الحروف المشتبهة في الرسم ، كنقط الباء بنقطة من تحتها ، ونقط التاء باثنتين من فوقها ، ومثلها الثاء بثلاث .

الثاني : نَقْط الإعراب ، أو نقط الحركات ، وهو للتفريق بين الحركات المختلفة في اللفظ ، كنقطة الفتحة : بنقطة من فوق الحرف ، ونقطة الكسرة : بنقطة من تحت الحرف ، ونقطة الضمة : بنقطة أمام الحرف أو بين يديه[1] .

وقد جعل الأقدمُون النوعين مُشتركين في الصورة بجعلها نقْطاً

---

(١) انظر كتاب (النقط) للحافظ أبي عمرو الداني ١٢٤ ـ ١٢٥

مُدوّراً من حيث اشتراكُها في المعنى والغاية ، لتفريق الحروف المتشابهة في الرسم ، بحيث كان النقط يفرق بينها ، كالتفريق بالحركات المختلفة بعضها من بعض . قال الحافظ أبو عمرو الداني في كتابه (المحكم في نقط المصاحف) ص ٤٣ : « إن اصطلاحهم على جعل الحركات نقْطاً كنقط الإعجام قد يتحقق من حيث كان معنى الإعراب التفريقَ بالحركات ، وكان الإعجام أيضاً يُفرق بين الحروف في الرسم ، وكان النقط يفرق بين الحركات المختلفة في اللفظ ، فلما اشتركا في المعنى أُشرك بينهما في الصورة » .

وقد أحدث المسلمون من التابعين هذين النوعين من النقط لضبط ألفاظ القرآن الكريم ، ولصونه من الخطأ في الكتابة ، ومن اللحن في القراءة .

أما النوع الأول من النقط : فهو المدوَّر ، وسُمي نقطاً لكونه على صورة الإعجام الذي يُرسم نُقطاً مدوّرة . وهذا النوع هو الذي استعمله النقاط وأصحاب القراءات لضبط المصاحف ، وهو من وضع (أبي الأسود الدؤلي) على القول الأصح .

وأما النوع الثاني : فهو الشكل ، وهذا النوع هو الذي استعمله النحويون وعلماء اللغة لضبط الشعر وألفاظ اللغة ، وهو من وضع الخليل بن أحمد ، وقد أخذه من أشكال الحروف . فالضمة واوٌ صغيرة الصّورة في أعلى الحرف ، لئلا تلتبس بالواو المكتوبة ، والكسرة ياءٌ تحت الحرف ، والفتحة ألفٌ مبطوحة فوق الحرف .

وأما سبب إحداث تنقيط المصاحف : فهو فساد الألسنة في اللغة العربية ، ووقوع اللحن في قراءة القرآن الكريم . فكان ذلك داعياً إلى صون القرآن من التحريف والتزييف في كتابته وتلاوته .

وقد اتفق المؤرخون على أنّ العربَ في عهودهم الأولى لم تعرف اصطلاحات التنقيط في كتاباتهم التي كان يكتبها كتّابهم ، وحتى مجيء الإسلام . فكان الصحابة رضي الله عنهم ينطقون بالقرآن الكريم واللغة العربية بألفاظ مضبوطة المخارج دقيقة الحركات الإعرابية بحسب سليقتهم وفطرتهم العربية من غير لحن ولا غلط ، وذلك لِما كان متأصلاً في نفوسهم من الفصاحة والبلاغة .

فلاستقامةِ ألسنتِهم وسلامةِ نطقهم ، لم يكونوا بحاجة إلى معرفةِ القواعد الإعرابية ، ولهذا ... لما كُتبت المصاحفُ في عهد النبوة كانت مجردة من الشكل والنقط ، اعتماداً على هذه الأصالة وتلك السليقة .

فلما اتسعتْ رقعةُ الإسلام واختلطَ العربُ بالعجم ، وتآخوا في الإسلام وتناسبوا وتصاهروا ، وتولّد من هؤلاء الآباء وتلك الأمهات أولادٌ أخذوا شيئاً من لغة الأب وشيئاً من لغة الأم ، واتسع الأمر على طول وعرض الأمة الإسلامية ، فضعفت الفطرة العربية ، ودخل اللحن في الكلام ، وحدثت حوادث نبَّهت المسلمين إلى القيام بحفظ القرآن الذي هو أصل الدين ومنبع الحق المبين ، من أن يتطرق إلى قارئه وتاليه شيءٌ من اللحن أو الخطأ .

وكان ممن تنبه إلى ذلك والي البصرة (زياد) فسأل أبا الأسود الدؤلي أن يضعَ للناسِ علاماتٍ تدل على الحركات والسكنات . فحدثَ أن سمعَ أبو الأسود قارئاً يقرأ قول الله تعالى ﴿ إنَّ اللهَ بَريءٌ مِنَ المشْرِكينَ وَرَسولُهُ ﴾ ، بجر ﴿ رسولَهُ ﴾ فأزعجَهُ ذلك وقال : عزَّ وجهُ اللهِ أن يبرأ من رسوله ، وذهبَ إلى زياد والي البصرة ، وقال له : قد أجبتُك إلى ما سألتَ ، فجعل للفتحةِ نقطةً فوقَ الحرف ، وللكسرة نقطةً أسفلَهُ ، وللضمةِ نقطةً بينَ الحرف والذي قبله ، وللتنوين نقطتين .

وسارَ الناسُ على هذا المنهج مدّة ، ثم بدؤوا يزيدون ويبتكرون ، فجعلوا علامة للحرف المشدد كالقوس ، ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ماقبلها من فتحة أو كسرة أو ضمة ، حتى كان عهد عبد الملك بن مروان ، ثم اضطروا إلى وضع النقْط الذي هو الإعجام للباء والتاء والثاء .. ثم التبس النقط بالشكل فميزوا بينهما باللون والرسم ، إلى أن تمّ الوضع على ماهو معهود اليوم .

وقد اشتهر في عملية الشكل والإعجام للكلمات القرآنية : أبو الأسود الدؤلي ، وتلميذاه : نصر بن عاصم الليثي ، ويحي بن يعمر العدواني ، وخليل بن أحمد ، وابن سيرين . وكانوا على درجة عالية من العلم والورع والدين .

المرحلة الباقية

تكفل الله تعالى
بحفظه وتخليده حتى قيام الساعة

لقد تكلمنا فيما سبق عن مراحل توثيق النصّ القرآني الكريم ضمن أزمان محدودة وعُهود معينة ، ولكن كلامنا هنا عن هذه المرحلة هو بيان تكفّل الله تبارك وتعالى بحفظ ما أَنزله على رسوله عليه الصلاة والسلام من كلامه الحق وهديه المبين ، من أَول آية أَنزلها حتى آخر آية . بل حتى قيام الساعة ، ولهذا كان الفضل الأول والأخير في نجاح المراحل التي مرّ بها السلف الصالح في توثيق نص كلام ربهم تبارك وتعالى ، يعود إلى تكفّله سبحانه لحفظ كتابه المجيد ، من أَن يأتيه الباطل من بين يديه أَو من خلفه ، ثم تخليدِه على هذا الحال حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن فضل الله سبحانه على هذه الأمة الإسلامية ، أنه لم يعهد بحفظ القرآن الكريم إلى هذه الأمة أَو إلى علمائها فقط كما كان الحال في

الأمم السابقة . وإنما أوكل ذلك إلى عظيم حفظه وكبير رعايته ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ﴾ [الحِجر : ٩] ، ولَمّا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمضي في تلاوته بعد وحيه على حالة من الإسراع والعجلة خشية تفلّته منه عليه الصلاة والسلام ، أَمره الله تعالى بقوله : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ ﴾ [القيامة : ١٦ ـ ١٩] ، فطمْأنه سبحانه بحفظه عليه وعلى أُمته من بعده حتى قيام الساعة . وذلك إعظاماً لأعظم معجزاته عليه الصلاة والسلام ، لأنّه سبحانه قد تحدّى بسورة منه أفصحَ العرب لساناً ، وأَقدرَ الناس بياناً ، وأَعتى البشر عناداً ، فلم يقدروا على أَن يأتوا بآية مثله .

ثم إنّ هذا القرآن الكريم لم يزلْ يُتلى آناء الليل وأَطراف النهار ، مع تداوله نقلاً وكتابةً ، ثم دراسةً واستنباطاً ، ما يقارب من أَلف وأربع مئة سنة هجرية ، على الرغم من كثرة المُلحدة وأَعداء الإسلام ، ولم يردنا على طول وعرض التاريخ أَنّ أَحداً منهم استطاع معارضة شيء من القرآن الكريم . فأيُّ دلالة أَعظم على صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به من عند ربه سبحانه من أَنه تعالى قد تكفّل بحفظه ورعايته ، من هذا !

ولهذا لم تَحتَج هذه الأمة إلى نبي بعدَ نبيّها عليه الصلاة والسلام ، كما كان الحال في الأمم الماضية ، حيثُ لم يخلُ زمانٌ من أَزمنتهم من نبي يَخْلُفُ من سبقَهُ من أَجل أَن يحكمهم بكتابهم و يهديهم إلى ما ينفعهم في آجلهم وعاجلهم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنّا أَنْزَلْنا التَّوْراةَ فيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِها النَبيّونَ الَّذينَ أَسْلَموا لِلَّذينَ هادوا وَالرَّبّانيّونَ وَالأَحْبارُ بِما اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ وَكانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، ومعنى استُحفِظوا ، أَي : أُمِرُوا بحفظه ، فوَكل الله تعالى حفظ التوراة إلى أَحبارهم ، ولهذا . دخلها من بعد أَنبيائهم التحريفُ والتبديل .

حفظة كتاب الله في الإسلام هم جنود الله :

ولَمّا تكفّل الله تعالى بحفظ القرآن المجيد خصّ به من شاء من هذه الأمة الإسلامية ليقوم على خدمته وحراسته ، فأورث هذه المهمة الجليلة من اصطفاه منها ، قال الله تعالى : ﴿ وَالّذي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبادِهِ لَخَبيرٌ بَصيرٌ ، ثُمَّ أَوْرَثْنا الْكِتابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبيرُ ﴾ [فاطر : ٣١-٣٢] ، فأخبر سبحانه في الآية الثانية عن أناس من هذه الأمة بأنّه يصطفيهم لِوِراثة كتابه الكريم ، فيحفظونه

في صدورهم ، ويرعَوْنه بأرواحهم ، ويخدمونه بأفئدتهم ، ويحرسونه بأبصارهم وبصائرهم ، وهذه خاصيّة خصَّ الله سبحانه بها هؤلاء ، ولذلك ميّزهم عن غيرهم بأن من كان (منهم ظالماً لنفسه) يغفر له ، ومن كان (منهم مقتصداً)يحاسبه حساباً يسيراً ، ومن كان (منهم سابقاً بالخيرات) يدخله الجنة بغير حساب ، كما جاء في تفسير الطبري لهذه الآية المباركة ، ولهذا .. أَشار سبحانه إلى كبير فضله في آخرها فقال : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ ، فأيُّ فضل أَعظم من هذا الفضل الذي خصّ الله به حفظةَ كتابه وورثة كلامه وحُرّاسَ دينه !

ولهذا . قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه النسائي وابن ماجه والحاكم بإسناد صحيح : « إنَّ لله أَهلينَ مِنَ النّاسِ ، قالوا : منْ هُمْ يا رسول الله ؟ قال : أَهلُ القُرآن ، همْ أَهلُ الله وخاصَّتُهُ » ، فيا هناءَ مَن كان منهم ، ونالَ شرفَ هذا النسب العظيم .

القرآن الكريم كتاب لا يغسله الماء عن صفحات الوجود :

روى الإمام مسلم في صحيحه في : كتاب (الجنة) باب (الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أَهلُ الجنة وأَهلُ النار) : أَنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ عن ربِّه تبارك وتعالى أَنّه قال : « إنّما بعثتُك لأَبتليَكَ ، وأَبتليَ بكَ ، وأَنزلتُ عليكَ كتاباً لا يغسُلُه الماءُ ، تقرؤه نائماً ويقظاناً » ففي هذا الحديث القدسي يُخبرُ

سبحانه : بأنّ هذا الكتاب الذي أَنزله على رسوله عليه الصلاة والسلام محفوظ من الزوال والاندثار حتى يرث سبحانه الأرضَ ومن عليها .. حيث يرفعه الله سبحانه إليه .. والكتابُ الذي لا يغسله الماء : هو القرآن الكريم الذي لا يصِلُهُ التحريفُ ، وهذه بشارةٌ من الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام : بأنّ هذا الكتاب الذي أَنزلته عليك تقرؤه نائماً ويقظاناً هو أيضاً مستودَعٌ في قلوبِ مَنْ بعدَكَ مِنَ المسلمين فلا يصلُ إليه الماء فيغسلُهُ ، وهذا كنايةٌ على عدم وصولِ يَدِ التحريفِ والتبديل إليه ، وأنّ أعداءه الكافرين لا يقدرون على محوهِ من صفحاتِ الوجود ، وهذا فضلٌ عظيم مِنَ اللهِ سبحانه على هذه الأمة الإسلامية في حفظِ قرآنِها عليها ، (لفظاً ومعناً) . وهذا . بخلاف حالِ أهلِ الكتاب الماضين الذين أُوْكلوا بحفظهِ ورعايتهِ ، فلم يقوموا بذلك . فلم يكن التبديلُ والتحريفُ والتزييفُ من أعدائهم ، وْإنّما كان منهم ، من أحبارِهم ورهبانِهم . حتى كانوا لا يحفظونه عن ظهر قلب ، ولا يَدَعون أحداً غيرَهم يفعلُ ذلك ، فقد كانت أسفار كتبهم مكتومة في سراديبهم محجوبة عن أعين أُمتهم .

ولَمّا خصّ الله تعالى من شاء من هذه الأمة الإسلامية بشرف حفظه عن ظهر قلب ، أقام له أئمةً ثقاتٍ تجرّدوا لرعايته والعناية به ، وبذلوا كلَّ غالٍ في حياتهم من أجلِ إتقان حفظه ، وتحسينِ تلاوته ، وتجويدِ ترتيلِهِ ، متلقين ذلك كابراً عن كابرٍ من شيوخهم حتى مُنتهى

سِدَّةِ سَنَدِهِ الْمُطَهَّر ، سيدنا محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى أمين الوحي : سيدنا جبريل عليه السلام ، حرفاً حرفاً ، وكلمةً كلمةً ، وآيةً آيةً ، وسورةً سورةً ، من غير أن يهملوا منه حركةً ، أو سكوناً ، أو يَهموا في شيءٍ من ذلك . فلم يدخل فيه ما ليسَ منه ، ولم يخرج عنه ما هو منه ، ونحن الآن نقرؤُهُ كما كان يقرؤهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابهِ ، وهم على أشدِّ حالة من الوعي واليقظة ، فيتلقون منه عليه الصلاة والسلام كلامَ الله تعالى من فَمِهِ الشريفِ بعدَ انفصامِ الوحي عنه ، كلمةً كلمةً ، وآيةً آيةً ، فيحفظونه في صدورهم ، ويكتبونه في مصاحفهم ، ليتعاضدَ المحفوظُ بالمكتوبِ ، فيتوفَّرَ للقرآنِ الكريم أكملُ عواملِ الحفظِ والبقاءِ ، وهكذا تمَّ الحالُ مستمراً في حمل القرآنِ وأدائهِ جيلاً جيلاً حتى هذا الزمانِ .

ومما يتفرعُ عن هذا البحث هذه الفصول التي نبحثُ فيها عن بعض فضائلِ القرآنِ الكريمِ وأهلهِ ، وعن بعضِ آدابهِ وآدابِ حمَلَتِهِ ، ثم نذكرُ طائفةً من النصوص القرآنيّة والنبويّة ؛ ندخلُ من خلالها إلى رحابِ الوعي القرآني ، وبالله المستعان .

١ ـ مع القرآن الكريم والهدي النبوي :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه إماما أهل الحديث : البخاري ومسلم في صحيحيهما : « خيرُكُمْ مَنْ تَعلَّمَ القرآنَ

وعَلَّمَه » . وفي رواية عند الطبراني بإسناد جيد : « خيرُكُمْ مَنْ قَرأَ القرآنَ وأقْرَأه » ، صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

إنّ من فضل القرآن الكريم : كونُه كلامَ الله تبارك وتعالى ، كلامَ مَنْ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ وهو السميعُ البصيرُ ، وصفةَ من ليسَ له شَبيهٌ ولا نِدٌّ ، ولولا أَنّ الله تعالى جعَل في قلوب عباده المؤمنين من القوّة على حمله ووعيه ما جعَلَهُ فيها ؛ ليتدبَّروا آياتِهِ وليتذكّروا بها ، لَضَعُفَتْ . بلْ ولتَضَعْضَعتْ لثقلِهِ . وأَنّى لهذهِ القلوبِ أن تطيقَهُ لولا فضلُ اللهِ سبحانه القائلِ : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هذا الْقُرْآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعَاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ [الحشر : ٢١] ، فأين قوّة القلوب هذه . من قوّة الجبال . ولكنّ الله تعالى من كمال فضله على خلقه أن رزقهم على حمله ما شاء أن يرزقهم رحمةً منه وكرماً .

ولعظمة هذا القرآن المجيد لا يقدر أحدٌ من الخلق أن يفَيَه حقّه من الوصف الذي يستحقه أو الثناء الذي يليق به غير الذي أنزله والذي أُنزل عليه ، قال الله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذي نَزّلَ أَحْسَنَ الْحَديثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الّذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه ابن حبان في

صحيحه : « عليكَ بتلاوةِ القرآنِ ، فإنّهُ نورٌ لكَ في الأَرضِ وذُخرٌ لـكَ في السماءِ » ، وقـال أيضـاً فيما رواه ابن حبـان في صحيحـه : « القرآن شافعٌ مُشفَّعٌ ، وماحلٌ ـ أي : مُدافع ـ مصدّقٌ ، مَنْ جَعلَهُ أَمامَـهُ قـادَهُ إلى الجنَّةِ ، ومن جعلَهُ خلف ظهرِهِ ساقَهُ إلى النار » .

قال الله تعالى : ﴿ ... كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَـدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ ﴾ [هود : ١] . وقال سبحـانـه : ﴿ ... كِتـابٌ أَنْزَلْنـاهُ إلَيْـكَ لِتُخْرِجَ النّـاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّـورِ بـِإذْنِ رَبِّهِمْ إلى صراطِ الْعَزيزِ الْحَميدِ ﴾ [إبراهيم : ١] .

وقـد أمر سبحـانـه رسولـه عليـه الصـلاة والسـلام بـأن يقـول في القرآن : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذينَ آمنوا هُدىً وَشِفـاءٌ ﴾ [فصلت : ٤٤] . ثم قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَـانَ هـذا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْـدِيـقَ الّـذي بَيْنَ يَـدَيْـهِ وَتَفْصيـلَ الكِتـابِ لا رَيْبَ فيــهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ٣٧] .

وقال سبحـانـه : ﴿ إنَّ هـذا الْقُرْآنَ يَهْـدِي لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنينَ الَّذِينَ يَعْمَلونَ الصّـالِحـاتِ أَنَّ لَهُمْ أجرَاً كَبيراً ﴾ [الإسراء : ٩] . وقـال سبحـانـه : ﴿ وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مـا هُـوَ شِفـاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

٢ ـ مع القرآن الكريم وأهله :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه الحاكم بسند صحيح : « إنّ للهِ أهلينَ مِنَ النّاسِ ، قالُوا : مَنْ هُمْ يا رسولَ الله ؟ قال : أهلُ القرآنِ ، هُمْ أهلُ الله وخاصّتُهُ » .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الحاكم أيضاً بإسناد صحيح : « مَنْ قرأَ القرآنَ فقدِ استدرَجَ النبوّةَ بينَ جنبيهِ غير أنَّهُ لا يُوحى إليه ، ولا ينبغي لصاحبِ القرآنِ أنْ يجدَ معَ من وَجَد ـ أي : أنْ لا يغضبَ ولا يحقدَ كغيره ـ ولا يجهل معَ منْ جهِل ، وفي جَوْفِهِ كلامُ الله » .

وقد روى الرَّامَهُرمُزي : « أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سُئل عن أيِّ الأعمالِ أفضل ؟ فقال : الحالُّ الْمُرْتحل » ، ويريد بذلك عليه الصلاة والسلام الذي يختمُ القرآنَ ثم يفتتِحُهُ بالقراءة من جديد ، وهكذا . وبهذا الحديث أخذَ عبدُ الله بن كثير أحدُ الأئمة القُرّاء السبعة ، فقد روى عنه ابن أبي بَزّة المكي بإسناده إليه : أنّه كانَ يأمرُ القارئَ إذا ختمَ عليهِ القرآنَ أن يفتتحَ بعقبِ ذلك فيقرأ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] ، وخمسَ آياتٍ مِنَ البقرةِ ، ليكونَ مُرتحلاً من خَتمةٍ حَالاًّ في ختمةٍ أخرَى اتّباعاً للحديثِ الشريفِ .

وقد روى ابنُ الجزري في كتابه : (النشر في القراءات العشر ١ / ٣) : أنّ الإمام أبو عبد الرحمن السُّلَمي التابعي الجليل يقول لَمّا يروي هذا الحديث عن عثمان : عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « خيرُكم مَنْ تعلّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ » . « هذا الذي أقعدَني مقعدِي هذا » ، يُشيرُ إلى كونِهِ جالساً في المسجد الجامع بالكوفة ، يعلم القرآنَ ويُقرِئُهُ ، معَ جلالة قدره وكثرةِ عملِهِ ، وحاجةِ الناسِ إلى علمِهِ ، وبقيَ يُقرئُ النّاسَ بجامعِ الكوفةِ أكثرَ من أربعينَ سنةٍ ، وعليه قرأ الحسنُ والحسينُ رضي الله عنهما ، ولذلك كان السّلَفُ رحمهم الله لا يعدِلون بإقرائه القرآنَ شيئاً ، فقد روينا عن شقيق أبي وائل : قالَ قيل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « إنّك تُقلُّ الصومَ ؟ قال : إني إذا صُمْتُ ضعُفْتُ عن القرآن ، وتلاوةُ القرآنِ أحبُّ إليَّ » . وفي جامع الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مَنْ شَغلَهُ القرآنُ عن ذكرِي ومسألتِي أعطيتُهُ أفضلَ ما أُعطي السائلين » ، قال الترمذي : حديث حسن غريب .

٣ ـ مع آداب القرآن الكريم وحملته :

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، صدقَ اللهُ العظيم .

فحقُّ التلاوةِ أَن يتلوَ القارئُ للقرآن بالنيّةِ الخالصة لله سبحانه وتعالى ، ثم بالتزامِ أَحكامه وتنفيذ أَوامرِه واجتنابِ نواهيه ، والاتعاظِ بمواعظهِ ، مع التفكّرِ بآياتهِ وإدراكِ معانيها ، ثم ينبغي لحاملِ القرآنِ أَن يكونَ خائفاً من ربِّه سبحانه راجياً عفوَهُ ومغفرتَهُ ، مُتوكّلاً عليهِ واثقاً بنصرهِ لأهلِ دينهِ ، داعياً للناسِ إلى هَدِي ربِّه عزَّ وجلّ . كما ينبغي لصاحب القرآن أَلا يخوض فيما يخوض به عامة الناس من اللهو واللعب والتنابز بالقول الفاحش ، وأَلا يجهلَ معَ مَنْ يجهلُ ، ولكنْ يعفُو و يصفحُ ، لحقِّ القرآنِ عليه ، لأنّ في جوفه كلامَ الله تعالى . ثم ينبغي له أَن يكونَ متواضعاً متجنباً الْعُجبَ والْكِبْر ، مُبتعداً عن الْجِدالِ والْمِراء ، وأَن يأخذَ نفسَهُ والناسَ بالرفق والأدب .

وأَهمُّ ما يجبُ عليه وينبغي له أَن يكونَ شديدَ الاحترام للقرآن الكريم ، وَقوراً في تلقيه ، هيّاباً في آدابهِ ، خاشِعاً في تلاوتِهِ ، يسألُ الله تعالى من فضلِهِ عندَ كل آيةِ رحمةٍ ، ويستعيذُ بهِ سبحانه مِن عذابهِ ومَقْتِهِ عندَ كل آيةِ عذابٍ .

وكما يجبُ أن يُوقّرَ القرآنَ الكريم في أَسمائهِ وأوصافهِ ، وألاّ يصفَ آيةً أو سورةً أو مصحفاً بالْصِغَر ، فقد روى الأعمش عن عليٍّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه أنّه قالَ : « لا يُصَغِّرُ الْمُصْحَفُ » ، وذكر ابنُ الأنباري : « أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه قرأ خطاً عُبِّرَ فيهِ

بلفظِ (مُصحفٌ صغير) فقال : مَنْ كَتَبَ هذا ؟ فقالَ رجلٌ : أنا ياأميرَ المؤمنين ، فضربَهُ بالدرّة ، وقال : عَظِّمُوا الْقُرْآنَ » .

ومِنْ آكَدِ ما يجبُ على حافظِ القرآنِ الكريم ألا يَرى أحداً أُوتيَ أفضلَ مما أُوتِيَ هو ، من حفظهِ لكلامِ اللهِ تعالى إلاّ من أُوتي مِثْلَ ماأُوتِيَ هو ، وأن يفرحَ بهِ فَرَحَ الغني بمالِهِ ، بل أكثرَ من فرحتِهِ ، لأنّ المالَ زائلٌ عنه حين يموت ، أمّا القرآنُ الكريم فإنّه معه شافعٌ له مُدافِعٌ عنه ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء : ١١٣] . ولم يُعطِ اللهُ سبحانه نبيَّه الكريمَ نعمةً أَجلَّ ولا أكبرَ من نعمةِ هذا الذكر الحكيم والهدي الْمُبين ، ولولا القرآنُ الكريم لَمَا كانَ نبياً ولا رسولاً . ولهذا قالَ عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قرأَ القرآنَ فقدِ استدرَجَ النبوّةَ بينَ جنبيهِ ، غيرَ أنّهُ لا يُوحَى إليه » .

أمّا الآدابُ التي يجبُ أن تُسلَكَ مع حملةِ القرآن الكريم فهي لا تقلُّ شأناً عن الآداب التي يجبُ أن يتصفَ بها المسلمُ تجاهَ القرآنِ ، وذلك لأنّ إكرامَ حَامِلِ القرآنِ هو تعظيمٌ لجلالِ اللهِ سبحانه ، فقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البيهقي في شُعَبِ الإيمان بإسناد حسن : « إنَّ مِنْ تعظيم جلالِ اللهِ إكرامَ ثلاثةٍ : الإمامِ الْمُقْسِط ، وذِي الشيبةِ المسلم ، وحاملِ القرآنِ غير الغالي فيه ، ولا الجافي عنهُ » . وأوردَ

السيوطي في الجامع الكبير حديثاً ونسبه لأبي نصر السجزي في (الإبانة) عن عائشة قالت : قالَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « القرآنُ أفضلُ منْ كلِّ شيء ، فمنْ وقَّرَ القرآنَ فقد وقّرَ الله ، ومَنِ استخفَّ بالقرآنِ فقدِ استخفَّ بحقِّ الله ، حَمَلَةُ القرآنِ هُمْ الْمَحْفوفونَ برحمةِ الله ، المعظِّمونَ كلامَ الله ، الْمُلْبَسونَ نورَ الله ، فمن وَالاهُمْ فقد وَالى الله ، ومنْ عاداهُمْ فقدِ استخفَّ بحقِّ اللهِ عزَّ وجلّ » . ثم قال أبو نصر : « هذا مِن أحسنِ الحديثِ وأغربِهِ ، وليس في إسنادِهِ إلا مقبولٌ ثقةٌ » .

٤ ـ مع القرآن الكريم في ترتيله وتجويده : ترتيل القرآن الكريم وتجويده

فالترتيل : هو تبيينُ حروفِ القرآن الكريم عند النطق به ، والتجويد هو تحسين أداء التلاوة لآياته ، ليكون ذلك أدعى إلى فهم المعاني القرآنية ، فقد روى الطبري بسند صحيح عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل : ٤] . قال : « بعضه في أثرِ بعض على تُؤدَةٍ » ، وقال أيضاً في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ .. كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان : ٣٢] ، ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ . علمناكَهُ شيئاً بعد شيء حتى حفظته . والترتيلُ في القرآن : هو التَّرسُّلُ والتَّثبت » .

وأمّا التجويد : فإنّهُ يُطلقُ في عُرفِ اللغةِ على الإتقان والتحسين ، وأمّا في عُرفِ الشرعِ : فإنّه يُقصدُ منه عندَ الْقُرّاء : تحسينُ تلاوةِ القرآنِ الكريمِ على حسبِ ماأنزلَ الله تعالى على نبيه عليه الصلاة والسلام ، بإخراجِ كلِّ حرفٍ من مخرجه ، وإعطائه حقّه من الصفاتِ التي تتعلق به ، من غير تكلّفٍ ولا تعسف ، ولا ارتكابِ ما يُخرجُهُ عن القرآنية ، وهو يبحث عن مخارج الحروف وصفاتها ، كالجهر والشّدّة والاستعلاء والاستفال ، والْغُنة وغيرها ، كما هو مُبين في كتاب (الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة) ، للإمام (أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي) ، فارجع إليه فإنّه هامٌّ في موضوعِهِ .

وحُكمه : العلمُ به : فرضٌ على الكفاية ، والعملُ به - أي : تطبيقه تلاوةً - : فرضٌ على كلِّ قارئٍ لقولِ اللهِ تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل : ٤] .

ومراتب القراءة أربعة :

الأولى : الترتيلُ ، وهو القراءةُ بتُؤدَةٍ واطمئْنان ، مع إخراج كل حرف من مخرجه ، وإعطائه حقَّه من صفاتهِ اللازمةِ له ، مع تدبّرِ معاني كلِّ كلمة .

الثانية : التحقيقُ ، وهو مثل الترتيل إلا أنّه أكثرُ منه اطمئناناً ، وهو المأخوذ بهِ في مقام التعليم عند المقرئين .

الثـالثـة : الحَـدْرُ ، وهـو الإسراعُ في القراءة مـع مراعــاة أحكام التلاوة .

الرابعة : التدويرُ ، وهو مرتبة متوسطة بين الترتيل والحدر .

وأفضـلُ مراتب التـلاوة مـا ورد النصُّ بــهِ ، قــال الله تعــالى : ﴿ وَرَتَّلْنَـاهُ تَرْتِيـلاً ﴾ [الفرقــان : ٣٢] ، فــالترتيـلُ أفضـلُ هــذه المراتبِ .

٥ ـ تجويد التلاوة وتحسين الصوت :

جاء في صحيح البخاري[1] أنَّ النبي صلى الله عليه وآلـه وسلم كان يتغنى بـالقرآن ، ويُرجّع صـوتـه بـه أحيـانـاً كما رجّـع يـوم الفتـح في قراءته : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ [الفتح : ١] ، وكانت صفـة ترجيعــه (فيما حكى عبـــد الله بن مغفّــل) « آ .. آ .. آ ... ثـلاث مرات » . وروى أيضاً في صحيحه ، باب : (المـاهر بـالقرآن) ، عن الْبَراء أنّــه قــال : « سمعتُ النبي صلى الله عليـــه وآلـــه وسلم يقرأ : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾[1] [التين : ١] ، فما سمعت أحداً أحسن صوتـاً أو قراءةً منه عليه الصلاة والسلام » . وروى ابنُ سعد في طبقـاتـه عن جابر بن عبد الله أنه قـال : « كان في كلام رسول الله صلى الله عليـه

(١) انظر فتح الباري للحافظ ابن حجر ١٣/٤٤١ ـ ٤٤٢

(١) أي : سورتها .

وآله وسلم ترتيلٌ وترسيلٌ » ، ولذلـك كان عليـه الصلاة والسلام يقول فيما رواه البخـاري : « ليسَ منّـا مَنْ لَمْ يتغنَّ بـالقرآن » أي : يترنّمُ بهِ . وروى أيضـاً في البـاب نفسـه : أنّـه عليـه الصلاة والسلام قـال : « مـا أَذِنَ الله لشيءٍ مـا أَذِنَ لنبيّ حسنِ التَّرنُّمِ بـالقرآن » ، ومعنى : (يـأذن) أي : يستمـعُ لـه ، يُقـال : أَذنتُ للشيء ، إذا استمعت لـه . وروى ابنُ سعد في الطبقات : عن قتادة أنّه قال : « ما بعث الله نبيّـاً قـطُّ إلاّ بعثـه حسنَ الوجـه حسنَ الصـوت ، حتى بعثَ نبيَّكم صلى الله عليه وآله وسلم ، حسنَ الوجهِ حسنَ الصوتِ » .

٦ ـ لا يُؤكل بالقرآن :

روى الإمـامُ أحمـد في مُسنـده بـإسنـادٍ رجـالـه ثقـات عن عبـد الرحمن بن شبل أنّ رسـول الله صلى الله عليـه وآلـه وسلم قـال : « اقْرؤُوا القرآنَ ولا تغلوا بـه ، ولا تجفوا عنـه ، ولا تـأكلـوا بـه ، ولا تسْتأثِروا به » . فهذا الحديث الشريف نصٌّ صريح في حُرمـة التـأكّل بالقرآن ، والترزّق به ، أي : مما نهى عنه عليه الصلاة والسلام في هـذا الحـديث (أن يجعـل القـارئ قراءَتـه سبيـلاً لاكتسـاب المـال كأجرة عليها) .

قال الإمام النووي في كتـابـه النـافع : (التبيـان في آداب حملـة القرآن) ص ٥٦ عن هؤلاء : « مُصيبةٌ ابْتُلِيَ بها بعضُ الجهلـة الطَّغـام

الْغَشَمة الذين يقرؤون على الجنائز ، وفي بعض المحافل » ، ثم يقول : « إنّ هذه بدعة محرّمة ظاهرة ، يأثم كلُّ مستمعٍ لها ، ويأثم كلُّ قادرٍ على إزالتِها أو النهي عنها إذا لم يفعل ذلك . وقد بذلتُ فيها بعضَ قدرتي ، وأرجو من الله الكريم أن يوفّق لإزالتِها مَن هو أهلٌ لذلك ، وأن يجعله في عافية » .

٧ ـ في رحاب الوعي القرآني :

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص : ٢٩] ، وقال سبحانه : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] .

وقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه الحاكم بإسناد صحيح : « إنَّ هذا القرآنَ مأدبةُ الله ، فاقْبلُوا مَأْدُبتَهُ مااستطعتُم ، إنّ هذا القرآنَ حبلُ الله المتين ، والنور المبين ، والشفاءُ النافعُ ، عصمةٌ لمنْ تمسّكَ به ، ونجاةٌ لمن اتّبعَه ، لا يَزيغُ فيُسْتعتب ، ولا يعوجُّ فيُقوّم ، ولا تنقضي عجائبُه، ولا يخْلقُ من كثرةِ الردِّ[1] ، اتْلوه فإنَّ اللهَ يأجُرُكم على تلاوتِهِ ، كلّ حرفٍ عشرَ حسنات ، أمَا أني لاأقولُ : ألَم حرف ، ولكن : ألفٌ حرفٌ ، ولامٌ حرفٌ ، وميمٌ حرفٌ » .

وقال رسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فيما رواه ابن حبان في

(١) أي : لا يبلى من كثرة التكرار .

صحيحه : عن أبي شريح أنّه قال : « خرجَ علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : أبشرُوا ، أليسَ تشهدُونَ أَنْ لا إلـهَ إلاّ الله وأني رسولُ الله ، قالوا : نعم ، قال : فإنَّ هذا القرآنَ طرفُهُ بيدِ الله ، وطرفُه بأيديكم ، فتمسكُوا به فإنكم لنْ تضِلُّوا ولنْ تهلكوا بعده أبداً » .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مسلم في صحيحه : « ما اجتمع قومٌ في بيتٍ منْ بيُوتِ الله يتلونَ كتابَ الله ويتدارَسونَه فيما بينهم ، إلاّ نزلتْ عليهم السكينةُ وغشيتْهُمُ الرحمةُ ، وحفتهُمُ الملائكةُ ، وذكرَهُم الله فيمنْ عندَهُ ، ومنْ بطّأ بهِ عملُهُ لم يُسْرعْ بهِ نسبُه » .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن ماجه بإسناد حسن : « يا أَبا ذَرٍّ لأنْ تغْدُوَ فتعلَّمَ آيةً مِنْ كتابِ الله خيرٌ منْ أَنْ تُصلي مئة ركعة » .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه ابن حبان في صحيحه : « عليكَ بتلاوةِ القرآنِ ، فإنَّهُ نورٌ لك في الأرضِ ، وذُخرٌ لك في السماء » . وبعد هذا البيان . يتوجب علينا بحث مسألة ترجمة القرآن ، فنقول :

تقرير حرمة تسمية ترجمة معاني القرآن : قرآناً

لقد أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم باللغة العربية

الفصحى على قلب سيد العرب والعـالمين : محمـد بن عبـد الله صلى الله عليه وآلـه وسلم ، في زمن بلوغ الفصـاحـة والبلاغـة ، وروعـة البيـان والأسـاليب مبلغـاً عظيمـاً . ليكون المعجـزة العظمى على مرّ الـدهـور وطول العصـور متحـديّـاً الإنس والجن على أن يـأتـوا بمثلـه أو ببعض أمثـال آيـاتـه ، لإثبـات صـدق نبوتـه عليـه الصـلاة والسـلام ، وأنـه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يُوحى . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ قُـلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَـأْتُـوا بِمِثْـلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

فقد جاء القرآن الكريم بـالنظم البـديع المخـالف لكل نظم معهود في لسان العرب ، وبالأسلوب المخـالف لجميع أسـاليب اللغـة العربيـة ، وبالجزالة التي لا تأتي من مخلوق بحال ، والتي لا يستطيع أحـد ـ كائنـاً من كان ـ أن يحاكيها أو يرتقي إلى مستواها .

وقد امتاز القرآن الكريم بكونه (كلام الله تبـارك وتعـالى) على جميع منـاهـج الأسـاليب الشعريـة والنثريـة ، وإنمـا كان على منهـاج خاص فريدٍ في أسلوبه ، نادرٍ في محتواه ، عظيمٍ في تفصيلاته ، رائعٍ في نسقـه ، دقيـقٍ في مبـاحثـه ، جليٌّ في عبـاراتـه ، مشرقٍ في تعبيره ، لم يكن للعرب بـه عهـد ، وليس لهم بـه سـابق معرفـة ، حتى إنهم لفرط تأثّرهم به كانوا يُقبلون على سماعه ، ويُؤخـذون بفصـاحتـه وبلاغتـه ، وتستولي على مشاعرهم ألفاظه وأساليبه ومعانيه .

ولهذا يستحيلُ نقلُ القرآن عن لغته المعجزة إلى لغات أخرى ، ثم يُسمى قرآناً ، أو (ترجمة قرآنية) وذلك للاعتبارات التالية :

أولاً : إذا خرج القرآن عن لغته العربية تأكد وقوع التغيير والتبديل والتحريف الذي يأمل به أعداء الإسلام .

ثانياً : لخصائصه البيانية العظيمة التي ضاهت أساليب بلغاء العرب وفصحائهم ، فلم يكن في مقدورهم أن يأتوا بمثلها ، أو بأقل مما يُشابهها ، فكيف يكون بمقدور غيرهم ممن لا يرتقي إلى مراتبهم أن يأتي بما يشابهها في غير لغتها .

ثالثاً : فقدان جميع اللغات في العالم خصائص اللغة العربية ، فكيف تتمكن كلها بأن تأتي بمثل خصائص القرآن المعجزة .

رابعاً : إعجاز القرآن الكريم بخصائصه البيانية وأساليبه التعبيرية ، والعجز عن تحقيقها في الترجمة يفقد القرآن إعجازه الذي يُثبت قرآنيته وصدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

لهذا . وأمثاله . لا تجوز ترجمة القرآن ترجمةً مطابقة ، بل لا يمكن تحقيقها ، أما ترجمة معانيه فهي شيء آخر ، وفيما يلي تفصيل ذلك :

جواز ترجمة معاني القرآن :

تجوز ترجمة معاني القرآن لمن لا يعرف اللغة العربية من المسلمين وغيرهم لنشر الدعوة الإسلامية ، فلا يمكن للدعوة أن تنتشر في العالم إلا إذا نقلنا معاني هداية الله سبحانه في القرآن إلى لغات من تُحمل إليهم الدعوة . وهذا الأمر لا شك في ضرورته وأهميته في تبليغ الإسلام للناس .

فترجمة معاني القرآن في حقيقتها هي : نقل معنىً أو معانٍ من معاني القرآن ، وذلك حسب إمكان وُجوه التفسير والتأويل . فليس في هذا الشكل تغيير للأصل ، أو نقله من وجه إلى وجه . وعلى هذا . يجوز الإطلاق على هذا النوع من الترجمة (اسم الترجمة التفسيرية) لا : القرآن المترجم .

وذلك لأن إطلاق تسمية الترجمة التفسيرية لمعاني القرآن لا تصوّر للسامع ، ولا تخيّل للقارئ أنه هو الأصل أو هو النقل الحرفي للأصل . كنقل الإنجيل عن العبرانية إلى السريانية والحبشية والرومية والعربية ، وكنقل التوراة عن العبرانية إلى هذه اللغات أيضاً ، لأن ترجمة القرآن حرفياً فوق طاقة البشر .

ترجمة القرآن الكريم فوق الطاقة البشرية :

لقد اختص القرآن الكريم بأسرار الإعجاز اللغوي والتشريعي

والمعنوي والبياني ، بما لا يدع للبشر جميعاً سبيلاً للشك في كونه كلام الله تبارك وتعالى .

لأنه فوق الإعجاز التشريعي والمعنوي ، معجزٌ في أسلوبه وبيانه ولغويته ، ومتفوق على جميع الأساليب العربية من العموم والخصوص ، والإطلاق والتقييد ، والإجمال والتبيين ، ودلالات الإشارة والعبارة ، والفحوى والإيماء ، وما فيها من الخبر والإنشاء ، والنفي والإثبات ، والحقيقة والمجاز ، والإطناب والإيجاز ، والحذف والعطف ، والتنكير والتعريف ، والتقديم والتأخير ، والاستعارة والإرداف ، والغلو والإفراط ، والتمثل والمطابقة ، والتجنيس والمقابلة ، والموازنة والمبالغة ، والمساواة والإشارة ، والتكميل والتقييم ، والترصيع والتقسيم ، والسلب والإيجاب ، والكناية والتعريض ، والعكس والتبديل ، والاعتراض والالتفاف ، والرجوع والاستطراد ، والتذييل والتكرار ، وأنواع الاستفهام والقَسم ، إلى غير ذلك مما يتعلق بالأساليب العربية ، فهو بهذه الخصائص التي اختص بها ، وفاق بها على جميع من نطق وكتب ، فإن ترجمته إلى غير لغته فوق طاقة البشر ، بل من المستحيلات في هذه الحياة .

وهو بخصائصه الإعجازية نجد أن كلاً من العالم والجاهل والسطحي والباحث : يلتقون على فهم القرآن .

كأنّ كل آية فيه قد فُصلت على روعة إعجازها اللغوي والبيـاني ، قد فُصلت تفصيلاً بمـا يتنـاسب مع عقليـة كل منهم بحسب درجتـه في المعرفة والعلم ، والاستيعاب والفهم .

فكيف تتحقق جميع هذه المزايا والخصائص في تراجم المترجمين !

وهذا . فحْوى فتاوى علمـاء الإسلام بحرمـة تسميـة ترجمـة معـاني القرآن الكريم قرآنـاً ، وحرمـة محـاولـة ترجمتـه حرفيـاً إلى غير اللغـة العربية .

كما أنهم أفتوا بحرمة كتابته بغير الحروف العربية ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيَّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٣] . وقـال سبحـانـه : ﴿ إِنّـا أَنْزَلْنـاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيّـاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يـوسف : ٢] . ، فهو عربي بمعناه ومبناه ، وبلفظه ورسمه .

الخاتمة

ثبوت النص القرآني الكريم بالتواتر المفيد للقطع واليقين

لم يعرف التاريخ في مدى عمره الطويل كتاباً أُحيط بأسوارٍ من العنايةِ والرعايةِ مثل ما عُرِفَ ذلك للقرآن الكريم ، ولا كتاباً ثبت في جملته وتفصيله بالتواتر المفيد للقطع واليقين مثل ما عُرف ذلك للقرآن الكريم ، ولا كتاباً أوجب الله تعالى حفظه على الأمة كلها غيرَ القرآن الكريم ، ولا كتاباً تكفل الله عزّ وجلّ بحفظه من التحريف والتبديل والتزييف غيرَ القرآن الكريم .

ولقد علمنا مما تقدم من أبحاث لمراحل التوثيق للنص القرآني الكريم كيف تمت طرق رعايته وسبل عنايته . فسار جميع المسلمين منذ عهد النبوّة إلى يومنا هذا على ذلك المنهج في الرعاية والعناية . وكانت طريقة تلقيهم للقرآن على حالة تمنع تداخل الخطأ أو التصحيف في حمله وأدائه وهي : الحفظ في الصدور والتدوين في السطور .

ولهذا . فإن القرآن الكريم قطعي الثبوت ، لتواتر نقله حفظاً

وكتابة جيلاً بعد جيل ، فقد تمّ نقله بالكتابة والمشافهة في كل عصر على طول وعرض الأمة الإسلامية ، من غير أن تختلف الأمة في شيء من كلماته على اختلاف أجناسها ، وتباعد ديارها .

حفظ القرآن عن ظهر قلب خصيصة للقرآن :

ومن خصائص هذا الكتاب السماوي الكريم أن الله عزّ وجل خصّ من اصطفاه من هذه الأمة لحفظه كله عن ظهر قلب ، بحيث يحفظه عددٌ كثيرٌ من المسلمين يثبت بهم التواتر المفيد للقطع واليقين على هذا الوضع الذي نُقل إلينا . وبهذا التوثيق الذي ثبت لدينا . في كل زمان في هذه الحياة ، وفي كل مكان من هذا الوجود ، بحيث لا يخلو زمان أبداً حتى يرث الله الأرض ومن عليها من وجود جمع كثير من الذين يحفظون كتاب الله تعالى عن ظهر قلب يتحقق بهم اتصال السند منهم إلى المنزّل على قلبه الطاهر صلى الله عليه وآله وسلم بالتواتر الذي يقطع باليقين الجازم (بأن هذا القرآن من عند الله تعالى) .

ولم يجعل الله سبحانه حفظه وتخليده في الصدور والسطور فحسب ، بل جعله محفوظاً وخالداً بالتعبّدِ بتلاوته في الصلاة ، وانشغال العلماء بتفسيره وتأويله ، والاستنباط منه ، ومدارسته

وتدريسه ، حتى كان مثارَ أكبرِ حركةٍ فكرية وعلمية ، واجتماعية وثقافية ، عرفتها البشر من لدن آدم عليه السلام إلى وقتنا هذا . بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين

المراجع العامة للأبحاث

١ ـ القرآن الكريم ، وتفسير الطبري ، والبغوي ، والقرطبي ، وابن كثير .

٢ ـ السنة النبوية : صحيح البخاري بشرح الحافظ ابن حجر ، وصحيح مسلم ، والسنن الأربعة ، ومجمع الزوائد للحافظ الهيثمي .

٣ ـ علوم القرآن : البرهان في علوم القرآن : للزركشي ، والإتقان : للسيوطي ، ومناهل العرفان في علوم القرآن : للزرقاني ، ومنهج القرآن في علوم القرآن : للشيخ محمد علي سلامة ، والمرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز : لأبي شامة ، ومقدمة في أصول التفسير : لابن تيمية ، وأصول التفسير لكتاب الله المنير : للمؤلف .

٤ ـ علم القراءات : النشر في القراءات العشر لابن الجزري ، ومنجد المقرئين له . الإبانة عن معاني القراءات : للقيسي ، معرفة القراء : للذهبي . غيث النفع في القراءات السبع : للصفاقسي ، بهامش سراج القارئ . السبعة : لابن مجاهد . إبراز المعاني من حرز الأماني : لأبي شامة . القراءات الشاذة : للقاضي . القراءات القرآنية : للدكتور الفضلي .

٥ ـ إعجاز القرآن : معترك الأقران في إعجاز القرآن : للسيوطي ، وتناسق الدرر في تناسب السور : للسيوطي أيضاً ، وأسرار التكرار في القرآن : للكرماني .

٦ ـ علم التجويد والترتيل : الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة : لابن أبي طالب القيسي ، والبرهان في تجويد القرآن : للقمحاوي ،

والتجويد والأصوات : لإبراهيم محمد نجا (مقرر في السنة الرابعة لكلية اللغة العربية في جامعة الأزهر) .

٧ ـ **اللغة العربية** : لسان العرب : لابن منظور ، وشرح حروف المعاني : للمالقي ، وعلم الحروف : للهروي ، ومعجم النحو : للدقر ، وأزاهير الفصحى في دقائق اللغة : لأبي السعود ، والمصباح المنير : للفيومي ، ومختار الصحاح : للرازي .

٨ ـ **رسم المصحف** : المقنع : للحافظ أبي عمرو الداني ، وكتاب النقط : له أيضاً ، ولطائف البيان في رسم القرآن شرح مورد الظمآن : مقرر معهد القراءات في الأزهر ، وإيقاظ الأعلام في اتباع رسم المصحف الإمام : للشنقيطي .

٩ ـ **القراءات** : النشر في القراءات العشر : للحافظ ابن الجزري ، والحجة في القراءات السبع : للإمام ابن خالويه ، والكشف عن وجوه القراءات السبع : للإمام ابن أبي طالب القيسي ، والإبانة عن معاني القراءات : له أيضاً .

١٠ ـ **التاريخ الإسلامي** : تاريخ الطبري ، والبداية والنهاية : للحافظ ابن كثير ، والكامل في التاريخ : للإمام ابن الأثير ، وتاريخ ابن خلدون ، ومروج الذهب : للمسعودي ، ومرآة الجنان : لليافعي وصبح الأعشى : للقلقشندي ، والسيرة النبوية : لابن هشام ، وخاتم النبيين ﷺ (السيرة النبوية) لأبي زهرة .

١١ ـ **أبحاث عامة** : المدخل لدراسة القرآن الكريم : للدكتور محمد محمد أبو شهبة ، الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ، كبرى اليقينيات الكونية : للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، التبيان في آداب حملة القرآن : للإمام النووي .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

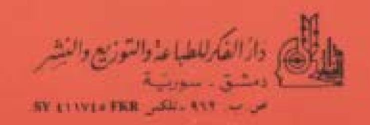
الموضوع	الصفحة

يضم هذا الكتاب التاريخ الخالص لتدوين نص القرآن العظيم ، مقروناً بزبدة القول في المناحي الكثيرة المتشعبة عن هذا الموضوع الجليل .

وتنبع مكانة هذا الكتاب من أن التشكيك الذي يحاوله بعض أعداء الإسلام في سلامة جمع القرآن العظيم ، والوثوق بهذا الجمع وبجامعيه .. هو المدخل الذي اتّخذوه للطعن في الإسلام من أعمق أركانه ؛ سنده وجوهره .

ولهذا تضمن الكتاب كل التفاصيل والبيّنات التاريخية التي تحمي كل ذي عقل سليم - من المسلمين وغيرهم - أن يصغي إلى تُرّهات التشكيك به .

فَمَنْعُ الرسول (ﷺ) أن يُكتَب شيء من الحديث مع القرآن ، وتأخيره السماح بكتابة الحديث ، واستعراض جبريل عليه السلام الكتاب مع النبي (ﷺ) عرضتين ، واستيثاق النبي (ﷺ) من حفظ الصحابة للكتاب غيباً في الصدور وكتابةً في السطور بين يديه ، وجمع صحف هذا الكتاب المنزّل في مكان واحد أيام أبي بكر ، وفي مصحفٍ إمامٍ يضمّ القراءات أيام عثمان ، بقلم كاتب واحد هو زيد ، وبالاقتصار على ما كُتِب بين يدي النبي (ﷺ) بشاهدين ... كل ذلك وقائع تاريخية تجلو كل غبار قد يُثار .


دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر
دمشق - سورية
ص ب ٩٦٢ - تلكس FKR ٤١١٧٤٥ SY